

الْبَعْثُ أَوْ مَعْنَى الرُّوحِ

تأليف

عبد العظيم مصطفى السعد

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يطلب من

مكتبة الأنجلو المصرية

مطبعة دار الكتاب العربي

شارع فاروق بمصر

تلفون ٥٠٩٣٨

الْبَعِثُ أَوْ مَعْنَى الرُّوحِ

تأليف

عبد العظيم محمد بن عبد الله

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة دار الكتاب العربي

شارع فاروق بستان

تلغراف ٥٠٩٣٨

بِسْمِ اللَّهِ وَعَلَى نَهْجٍ مِنْ قَدَرِكَ
أَخُطَّ صَفْحَةً مِنْ صَفَحَاتِ الْعُلُومِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ الْإِنْسَانَ بِالْمِ تَعْلَمُ

نشوء العقلية والتاريخ

لقد فهمنا أن الحياة كان يقدر لها وضع آخر لو تحكم آدم في طباعه ونوازعه في عزم وصدق إرادة ؛ وفهمنا أنه كان في جنة ، ولكن أين ومتى ؟ .
فذلك شيء لم يحققه لنا التاريخ .

وحيث نشأت الأسر وتكونت الجماعات ، نشأت عقليات عرفت كيف تؤرخ للحوادث . وحيث ابتدأ التاريخ كان قد غابت عنه فترة قدرها المؤرخ الأول على شيء من المبالغة والتهويل ؛ بقي في أساطير الأولين حتى بنينا عليه بداية الحياة قبل التاريخ بملايين من السنين . والواقع أنها حين ابتدأت بآدم كانت تبتدىء بالعصر الحجري المعروف في التاريخ ؛ وحيث تُوِّثت بنوح كانت قد خرجت من صيد إلى سياحة ، وهذا وذاك لم يخرج عن القرن الستين قبل الميلاد .

ولقد فهمت تلك العقليات . أو تخيلت أن الأرض تتصل بالسماء في محيط ، وأنها بقعة من بقعه ؛ وحيث قدرت لجنة آدم موضعاً قدرته في نقطة من السماء أو على جزيرة من جزر ذلك المحيط ، وقد بقي هذا التقدير حتى فهمنا خطأ أنها كانت على واحد من الكواكب .

ولقد نزلت شرائع ، وجاءت أديان ؛ لتصل بالعقلية إلى ضبط في تحليل أو تحریم ؛ ووقف الإنسان منها على عناد أدى إلى خلط في التدوين .

واقدر كان لكل نبي لبنة في بناء الإنسانية ، ولكنها قد تناساها التاريخ ، وتخبطنا في موضعها بين أحداثه . وكان كل مصدر من مصادره يغذ

في سيره دون أن يلوى على واحدة منها بتفصيل علمي أو زمني ، ولعل ذلك كان ... لأن ما وصل إلينا من أساطير ، كان لعلماء يونانيين ؛ إذ كانوا لا يمتنون إلى الأديان السماوية بصلة .

ولقد كان كل تدوين يتأثر بعقلية المدون أو جنسيته أكثر مما يتأثر بالرأي العام . وقد قسمت العقلية أو الجنسية إلى سامية وآرية ، والواقع أنه لا معنى لهذا التقسيم . أو أنه تقسيم وقتي ريثما تتجه العقلية إلى تفريع جديد .

والتاريخ للعقلية ليس من السهل بحيث ينتهي عند إعداد قلم أوقراطس . على أنه شيء لم يعرفه إلا العلم الحديث ، وعلى بداية ؛ وحين يبتدىء يبتدىء بما قبيل الإسلام ويتناول معه عقلية اليونان . أما فيما عدا ذلك فيعوزه بحث أو تنقيب لرذه في فهمنا إلى صواب .

ولقد بنيت قوميات وفنيت أم ؛ وأما نسبة هذه أو تلك لنبي فقد وقف التاريخ منها على صمت ؛ ولم يوسع صدره إلا لسامية ! . أو إسماعيلية أو إسرائيلية لا غير .

ولقد كان التدوين يعتنى أكثر ما يعتنى بالأحداث والوقائع ؛ وأما الناحية التاريخية لنشأة لغة أو تطور عقلية فما زالت تحت أنقاض التاريخ . وإننا سنحاول أن نرد لكل نبي قوميته أو ذريته مع توضيح لحقيقة دينية غامضة أدت إلى تمسك الإنسانية بإله منها . وآخر لنشأة لغوية تربط به أواصر تلك اللغات ، كما نصل به مع الإنسانية في تدرجها الفكري إلى تحللها من هذا الإله .

غيبٌ ما ممول

ما أطيب الحياة لو لم تعكر بموت . أو توصف بكدر . وما ألد نعيمها لو أعطاه الإنسان على عقل وبصيرة . وما أخصبها تربة ؛ وأسرعها إنتاجا لو أصابت من البدء رجولة سريعة من بنوة آدم . ولكن عقلية آدم كانت صحيفة بيضاء على نحو ما ندرسه للطفولة في علم النفس . وكان كثيراً ما ينسى دروسه التي يتلقاها عن ربه . وقد بقيت بنوته على بطء في بناء معرفتها ، وتكوين علومها ؛ لا شيء إلا لأنه لم يسبقه عصر ما من عصر الحضارة يستطيع أن يأخذ منه مادة للبناء .

ولقد ركنت الحياة بعد آدم إلى كسل كان إرثا لكل غباوة . وإن آدم يمكن أن نلتمس له عذراً في ذلك . . ولكنه الله سبحانه ما التمس له ذلك : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل قسِيّ ولم نجد له عزّماً » . وإنه سبحانه كان يريد أن يأخذ آدم بالشدة لا باللين . وكان يريد منه أن يبني لنفسه بنفسه . وبنيه من بعده مادة للمعرفة . ومادة للبناء . وأساسا لحضارة المستقبل . وإن عقلا ما . . . لا يمكن أن يأخذ تكوينه إلا بعد مشاهدة واستنباط .

وإن الحياة تجربة واختبار . والعقل لا يحصى إلا عن هذا الطريق . إن آدم كان يجب عليه أن يجرب ويختبر . وييث في ذريته شيئا من حب الاستطلاع بما أخذه عن ربه من إرشاد . ولكنه لم يستطع ذلك . وكان لله أن يأخذ ابن آدم يبتليه . ليمرن سمعه . ويجرب بصيرته . ليصل إلى المعرفة بنفسه عن طريق المشاهدة . ومقارنة الحقائق بعضها ببعض .

واقدا كان الإنسان الأول طفلا في عقله . وطفلا في تكوينه . وكان كثيراً ما تتعرج به الطريق إلى المعرفة . وكان أحوج ما يكون إلى مرشد . وكان كلما ضاقت به المعرفة أو وصل فيها إلى جمود هيء له بعث جديد ليضع لبنه في هذا البناء .

وقد كان كل نبي يترك ذرية ؛ ربما اعتبرت أصولا صالحة للإنشاء والتعمير . وربما تغلب الضعف على بعض منها فأبطأ ، وأبطأت به الحياة عن سنة التقدم والارتقاء .

لقد كان على الإنسان أن يبني . ويعرف هندسة الطرق والبناء ، وكان عليه أن يزاوِل العلوم ويعرف طبائع الأشياء . وكان عليه أن يزاوِل التجارة ويعرف علوم الاقتصاد . . . الخ ولو أمكنه أن ينسج ثوبه ويزخرف عمارته على عقل وبصيرة في الدين لخطت الإنسانية بخطوات واسعة إلى حضارة القرن العشرين . ولقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . وحين بنى عقله على شيء استحق أن يقال في تكوينه العقل أو العلمى « إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ أَمَشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » .

ولقد استطاع الإنسان أن يبني حضارات ، ويقم مدنيات ، ولكنها لم تكن على شيء ؛ إذ لم تكن الإنسانية قد أخذت بسبب من السماء ، وكان نصيبها التدمير . وما اتصل منها بسبب تجاهله أو تعامى عنه التاريخ . « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . . . وَزُخْرُفًا » .

ولقد كان ذكر جنة أونار في ذلك للترغيب والترهيب فقط . . . ؛ كأسلوب

من أساليب التربية والتعليم . وكان يشتد وقع ذكر جنة في نفوس قوم يسكنون بطون الصحراء ، فإذا لمسوا منها شيئاً بعد الهجرة على ضفاف الأنهار تربعوا عليه ونسوا بؤس الحياة ، في حين أن آخرين حسبوها شيئاً آخر في غيب السماء ؛ والواقع أنها لم تكن أزيد من ذلك إلا بقدر ما يجتد في المعرفة من بحوث واختراعات تهيب لهؤلاء وهؤلاء جزءاً من السعادة .

إننا في الواقع لو أتينا بذلك الإنسان الأول لو فرضناه معدوماً ليعيش معنا في ربوع العلم ؛ وتحت ظل من حضارة القرن العشرين ما شك في أنها جنة ، وإن الغيب الذي كثر تردده في الدين هو كل جديد تأتي به رسالة ، أو يستحدثه عقل ، أو ينتجه نبوغ ؛ وهل يعلم سابق أو لاحق ما ستكون عليه الحضارة بعد قرن مثلاً أو قرنين .

ولقد كان الموت أشد ما ابتلى به الإنسان ، حتى جرى خطأ على الألسنة أن الدنيا دار فناء ؛ وقد كان يشتد وقعها إذا أصاب عاهل أسرة أو رب جماعة ؛ حتى ضلت الأفهام وحارت العقول فيما بعد الموت ، وإن الأمر ما كان يستدعي ذلك لو كنا على هدى وبصيرة . وماذا يصنع الله بالإنسانية التي يتباهى بها إذا كتب لها فناء بعد الموت . أو قدر لها بعداً عن المعرفة بحياة روحية فقط كما هو شائع في الدين . إن ابن آدم ما فنى بجسمه ولا بروحه إذا مات . أو أعلنت له الوفاة ؛ إنه يتمتع بقسط وافر من الحياة على ظهر الكواكب كل حسب دينه وتكوينه في دنياء . « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ؛ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ »^(١) ، فرحين بما آتاهم الله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم^(٢) . « أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وإن ذلك أمر عام لمن قتل أو لم يقتل

(١) لا يفهم من رزق إلا أكل وشرب وهذا يؤكده وجود هذه الحياة بشكلها الأول .

(٢) أي المخالفون معهم في الدين .

في سبيل الله . فإذا بعث نبي ، وأوجد فصلا في الدنيا بين حياة وحياة ، وثبت لدينه وجود واعتراف عام هي له ولأنصاره بعد الوفاة حياة على ظهر واحد من الكواكب ، وألقى بالخالفين في آخر مع من سبقوهم من المحافظين أو الرجعيين عن كل تجديد . وقد أصبحت هذه الكواكب موردا لموتى كل دين بعد الإحياء . كل نبي مع أمته يبعث فيها الحياة ويردها إلى الصواب إن أخطأته في الطريق ؛ كما يتعلم السابق من اللاحق كل ما يحدث على ظهر الدنيا من أسباب البعث والتجديد .

هذا ما يجب أن نفهمه في شأن الإنسانية بعد الموت . وهل يتباهى الله سبحانه بخلق سموات سبع وتكون مجدية من الحياة ؛ أو واقفة عند التراث الأول من العلوم ؟ . . . « بَلْ أَدَارِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » .

إن الدنيا يجب أن نفهمها للآخرة دار تجربة وتمهيد ؛ يتعلم فيها الفرد طرق الكسب ؛ فيخطط لنفسه أو غيره حذاه ليصنعه كذلك في الآخرة ؛ كما يتعلم هندسة البناء أو الري . . . الخ لينبئ لنفسه أو غيره داره . أو يدير تجارته أو يحسن الفلاحة . فتتكون المدينة وتتهيأ أسباب الحضارة للآخرة .

ونحن في الدنيا قد تعلمنا كل شيء ؛ وفهمنا كل شيء . . . تعلمنا كيف تقام الممالك ، وكيف تساس الدول . وفهمنا أسباب الهدم في كل شيء حتى نكون منه في الآخرة على حذر . وقد أخذنا الله على هذا النهج التدريجي منذ البدء ؛ حتى إذا أعلن انتهاء هذه الفترة يكون المستقبل قد تمت عدده ، وتهيأت أسبابه . وقد أمهلنا الله كثيرا ، وأمد لنا في العمر حتى لا يكون هناك عذر لمعتذر .

والعالم الآن قد أخذ طريقه إلى الكمال ، ولم يبق على فترة الانتقال سوى

تجديد في وسائل التربية والتعليم ، وقوة تفكير تصل بالعقلية إلى إرسال ؛ ولو في واحد فقط من الناس : « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ^(١) » .

هذا ما يمكن أن يقال في شأن جنة . وإن جنة وعد بها المتقون أقل من ذلك بكثير . وإنها لم يصفها القرآن إلا وصفا مجملا خلى من علوم أو اختراع ولعلها وقف تعريفها إلى هذا الحد لأن ذلك لم يكن إلا من حضارة القرن العشرين . « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ * أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ؛ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ؛ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ » . أما النار فلا أعتقد أنها جحيم . أو ترمى بشرر كالقصر ؛ وربما كان ذلك معنى للموجات الكهربية أو الأشعة الخيالية التي يستطيع أن يكونها الإنسان لنفسه حين يصل بعقليته إلى إرسال لاسلكي ؛ ولعل ذلك يكون موضع منافسة بين الجميع . وإن ذلك لن يكون إلا تكويناً للشخصية على نحو ماسنينيه بعد . « قُلْ يَا قَوْمِ : أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ - أي تكوين شخصيتكم - إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ * مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ؛ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

وربما كان ذلك أيضاً معنى للتفريغ الكهربي بين الأمم في حروبها العالمية . وقد تمت ديانة زرادشت إلى شيء من هذا المعنى ؛ فما جاد من الأفكار أخذ شكلاً ناصعاً ومن نور ؛ وما خبت اختلاط بشوائب الحياة . « اللَّهُ نُورٌ ^(٢) السَّمَوَاتِ

(١) الخروج والتخريج والبعث والنفخ في الصور كلها ألفاظ مترادفة فيقال فلان تخرج على فلان في الأدب كما يقال قد نفخ في صورة فلان أي أخذ بيده إلى الكمال حتى أن كلمة البعث والتجديد أصبحت ملازمة في الخطابة لألفاظ الزعماء وساسة الدول ولا تعدو الصيحة أن تكون صيحة تنبيه من غفلة أو نسيان والنفخ في الصور أي الشكل والصورة الكهربية للإنسان والمنعكسة في زرقة السماء والتي يلتقطها اللاسلكي بأحد أجهزته .

(٢) أي منيرها بموجات كهربية يشعها لانس وجان عندما تستعد النفس لتحمل جزء كبير من المشاق .

وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . إِنْخ . « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ؛ بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . إِنْخ . وقد بقي هذا اللفظ « النار » على حروفه ومعناه لأن الإنسانية لم تتخلص بعد من شوائب الحياة . أو ما يسمى بأخطاء في عرف الدين ، أو لأنها ما كانت تعرف من قبل شيئاً عن تلك الموجات الكهربية التي يمتلئ بها الجو ، وامله استوثرته هذه الحروف لتبلغ العظة من النفوس ، وليعلم الإنسان أنه ما خلق عبثاً ، ولن يترك سدى ؛ وحتى يأخذ لنفسه طريقاً جادة في الحياة . وليس معنى هذا أن الإنسان سيفلت من عقاب ؛ وإن نعيم الآخرة لن يوزع إلا بقسطاس ، وعلى حسب مقدار استعداد الأنفس للتخلص من أخطاء الحياة .

هذا شيء عن النشأة الأولى . وقد أرادها سبحانه أن نكون من تكوين الإنسان . ويمكن أن نقدر مدتها عند نزول القرآن بستة آلاف سنة قبل بعث محمد أو قبل الميلاد من قوله تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . » مع قوله تعالى : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » وخلق سموات : خلق عقليات وأرواح يمكن أن ترتبط بالسماء . أما نشأة أخرى فقد قال الله فيها : « وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى » بعد تجلية الأمور وتوضيح السبيل لكل إنسان بعد إرشاده إلى ما أخطأ فيه وما أصاب . وبعد بعثرة العلوم والمعارف عندما يأخذ منها الجاهل بنصيب وافر يتساوى فيه مع العلماء . ثم يدعى قسراً إلى اعتراف إثم أو إتيان محرم . أو يدعى إلى تقديم عقلية في العلوم بعد تضليلها عليه فمن أثبت رجولة نجا وإلا فلا « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ؛ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » .

كيف خلق الله آدم

لقد سألتني بعض الأساتذة : كيف خلق الله آدم ؟ . . . فوقفت مبهورا ، وفهمت أنه يريدني أن أقول بإحدى نظريات درون ؛ أو أنتحى إليها في شيء من تفكيري في الجواب . . . ولقد سألت نفسي كثيرا . « كيف خلق الله آدم » . « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ » . ولكن شتان بين تراب وجسم إنسان ، ولولا عاصم من الدين مع شيء من التفكير لضللت أو عييت بالجواب .

لقد كنا في الصغر إذا جرح أحدنا بجرح ، وسألت منه الدماء ضمدناه بجملة من تراب ناعم ، وبعد أيام يلتئم الجرح ويتساوى موضعه مع الجسم ، وحينما كبرنا ، وأخذنا بقسط وافر من التعليم علمنا أن التراب مكونات معدنية ؛ وأن الجسم كذلك . وفهمنا أو يجب أن نفهم أن للمعادن حالات ، وأن الملاءمة بينها . أو تحويلها من حالة إلى أخرى أمر تقوم عليه مداواة الجروح . أو أمر تنشأ عنه الحياة تحت ضغط ما من حرارة الجو . ولقد فهمت أخيرا أن التراب باختلاطه بالدم قد تحول إلى خلايا امتزجت مع خلايا الجسم ، وأن حرارة الجسم قامت بعملية التحويل خير قيام .

ولقد كنا في صغرننا أيضا حين نلهو على شواطئ الأنهار نقوم بعملية الحفر فيما نسميه بالطمى . فنجد بعد مسافات ، وتحت ضغط ما . . . من حرارة الجو ديدانا تكونت بعملية التحويل ؛ كنا نأخذها لنصيد بها السمك كما سمعنا أو عرفنا من الصيادين وشبان القرية ، ولقد قلت أخيرا في نفسي لِمَ لم يكن

قد خلق الله آدم بهذه الكيفية وهذا النظام مع قصد وعناية من ذات الله .
على أن خلق الديدان أو جراثيم الجو لم يخل أيضا من قصد .

والثمار والنباتات تمثل المعادن في واحدة أيضا من حالاتها . ويمكن أن نفهم عملية التكوين الأولى للحياة في شكل أوسع بوقوع نقطة ما... من الثمرة تستكمل كل أنواع المعادن المكونة للحياة ، وبنسبها المطلوبة ، وتحت ضغط ما... من حرارة الجو أو موجاته الكهربائية يحدث ما نسميه آفة سماوية ، ينشأ عنها تكوين ديدان بالثمرة ، وقد تتطور إلى حشرة « سوس » في مثل العدس والفول ، وقد نلاحظ عند كسر الفولة وعند وجود هذه العملية بها مادة مخاطية في هذه النقطة تشبه المادة المنوية ، أو بمعنى آخر تشبه خلايا انحلت من جسم الإنسان فيصرفها الله بما يعرف في علم الطب بخراجات ، ولولا رافة بالإنسان لتجولت إلى ديدان . على أن بعض الأحياء وخاصة السمك لم يسلم من تحولها إلى ديدان . وربما كان خلق حواء من آدم بهذا النظام .

أما كيفية الإحياء فيكون بتوجيه صورة كهربية خيالية للحشرة أو الجنين إلى هذه المادة لتتشكل بشكلها ، وأما الناحية الفكرية لهذه الصورة فتكون مما يدور حول الأب من أفكار أثناء تكوين الجنين . أو من الحياة العملية التي ستستعد لها الحشرة وتركز في خلايا المخ والأعصاب . « يَأْيُهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ ؛ فَسَوَّاكَ ؛ فَعَدَّلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »

ولقد أخذني البحث ، والرغبة الملحة في التفكير إلى عميات عرفت بها معنى الحياة ، تلك العمليات : هي عملية التحويل في المعادن بين حالاتها . ثم عملية التغذية أو الهضم ؛ وإلى أي مدى يكون انتفاع الأعضاء بها . ثم وقوع واحدة من هاتين تحت ضغط ما من حرارة الجو .

إن الحياة ليست بالشئ الهين عند الله . وإنها يجب أن تكون كذلك عند الإنسان . ولكن الإنسان حتى الآن ما عرف قدر نفسه « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » .

لقد فهمنا أو يجب أن نفهم أن في الإمكان تحويل الطين إلى مادة حديدية في حالتها الأولى ، أو أقرب إليها بعملية الاحتراق ؛ كما نشاهد ذلك في تحويل اللين « الطوب الأخضر » إلى آجر ، وإن أول ما يتصاعد منها المعادن الكربونية^(١) من صديومات و بوتاسيومات . وهي أيضا تساعد على الاحتراق مع ما يلقي لهذه العملية من فضلات . وما الحديد في أول حالاته إلا رمال انعدمت . أو كادت تنعدم فيها المادة الكربونية التي تغلب على الحجارة ورمال الصحراء . وربما كان في الإمكان تحويل الآجر إلى حديد بعد زمن ما.. من دفنه تحت الأرض . وكل ذلك يمكن أن نعمله لو أعوزتنا مادة الحديد . هذا شئ . والمعادن في تكوين الإنسان والنبات شئ آخر . كلا !!

لا أقول شيئاً آخر ، إن المعادن هي هي ؛ ولكن كيف تحولت من تراب إلى غذاء . ومن غذاء إلى خلايا وأجسام إنها القدرة . إن البذور لتنمو . وإن الماء ليمدها بقسطها من الغذاء . وإن عملية الامتصاص لتواتيها من التربة بما تشاء وفي خفاء . وإن ذلك مما لا يمكن أن يدخل تحت تجربة واختبار ،

(١) هذا تعبير باعتبار ما سيكون لشدة الامتزاج بينها « أي المادة الكربونية » وبين تلك المعادن .

أو يتحكم فيه الإنسان بأنبوبة أو مسبار . « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ » .
إن نظام الطبيعة ليس آليا كما يدعون . وإذا كان آليا فهل حادت شجرة عن نظامها أو خرج نبات عن خصائصه ومميزاته أو أبطأت الأرض دقيقة في دورتها حول الشمس ؟ ... كلا !! وإنيها والله لأهدى من الإنسان وأبعد عن عمايته وضلاله .

إننا لو سألنا : لم اختصت أوراق الأشجار من المعادن بالكربون الملون لها وللأزهار لعمى ابن آدم عن الجواب . ألم يفهم أنه أسرع في الصعود والتبخير المعدني من أى معدن آخر ؟ ... وألم يستعمله للهضم مع المشروبات ؟ ...
وإن عمليات تكوين جسم الإنسان من حيث تركيبه المعدني بالتغذية — لا أدعى إلى الاستعجاب من — حيث قدرة كل عضو على استخلاص مادته الغذائية التي تساعد على تكوينه . أو بالأحرى المعدن الغذائي الذي يغلب في تركيبه^(١) .

إن أول ما يصادفنا في ذلك قدرة الأمعاء على امتصاص المادة الغذائية .

(١) يغلب على الكبد والطحال في تركيبهما المعدني المادة الكربونية التي سبق التعبير عنها ليؤديا وظيفة امتصاص عصارات الهضم من الأحماض المعدنية الأول للادخار والثاني للجمع . ويغلب على الأعصاب النحاس والبلاتين ليولدا حرارة زائدة لازمة لصهر الأغذية . ويغلب على ماء العين الفضة والنحاس في حالة مائية لتنعكس عليها صور المرئيات أما لسانها أى سوادها فمن نحاس خالص وأما حبه فمن خارصين ليحدث بينهما تفاعل كهربى يساعد على جذب الصورة كما يقوم بعملية السلب لازائد من حرارة الأعصاب وأما بويضات التناسل في الذكور فواحدة من نحاس وأخرى من رصاص لسلب وضبط للمهوية في آن واحد نتيجة تفاوت كبير بينهما في درجة توصيل الحرارة وذلك يقوم مقام تصغير أو تكبير في كرات الشحن — أما في الأنوثة فقصدير بدل الرصاص ليزداد التفاعل اللازم للجنين وقد يستوى الذكور والأنثى في نصيبهما من القصدير في الجلد وفيما يعلو أعضاء التناسل فقط .

فهذه مادة نباتية أو حيوانية تحولت إلى أحماض غذائية ؛ وتلك خلايا تكونت ، وصارت أجهزة وفي قدرة على الامتصاص .

وإذا كان للأمعاء وعلى قدرة أن تمتص تلك المادة الغذائية في حالة أحماض فكيف تحيلها إلى خلايا وعضلات ؟ . إنها تأخذ لونا قرمزيا أو قريبا منه من الأمعاء . وإن الأعصاب تمدّها بالحرارة اللازمة فتصهرها ، وتحيلها إلى حالة دموية صالحة لمد الأعصاب والخلايا بما تشاء . فإذا حملتها الأعصاب ووصلت بها إلى نقطة ما قريبة من الجلد ، ثم لمست برودة ظاهرية محيطة بالجسم جمدت ، وتحولت إلى خلايا وعضلات . وما بعد عن ظاهر الجسم بقي في انصهار في أوردته وشرائينه ؛ ليمد الجسم بما يشاء وقت الحاجة .

إن الدم خلايا منصهرة . وإننا إذا ألقينا بجزء منه في ماء يغلي تماسك ، وجمد ، وصار كتلك التي نشترىها من محلات الجزارة بعد الطهي . وإنه مواد معدنية مختلفة . ولكن كيف يمتص كل عضو معدنه المشاكل له منه ؟ ... إن ذلك يمكن أن نفهمه بما نسميه بعملية الائتلاف ؛ وإن تلك يمكن أن نفهمها بقطعان من حيوانات مختلفة . هيجت واختلطت . فإذا زجت لتفرقة عاد كل حيوان إلى قطيعه بعامل ألفة سابقة

هذا وتأثر المعادن بالحرارة ، واختلافها في مقدار هذا التأثير قد فهمناه ؛ وأقمنا عليه التجارب في علوم الطبيعة . والمعدن هو هو يحتفظ بخصائصه ومميزاته

== وقد استنتج أيضا أن حقن سواد العين بالخارصين يعبد البصر لفاقده أما المخنث خلايا نحاسية قريبة من الانحلال . وأما الأذنان والأنف فمن الجرافين . وأما المعدة والأمعاء فتركيبات معدنية مختلفة حتى لا يتخلف معدن غذائي بعد عملية الائتلاف . وأرى أنها ينقصها المادة الكربونية المساعدة على الهضم وتقليل الفضلات الخلقية . ويمكن تزويدها بها بتناول شرب الملح بنظام .

في أى حالة من حالاته . وبهذه الخصائص يستمد الجسم أو النبات ما يلزمه من حرارة الجو أو يحتفظ بها لوقت الحاجة .

هنا يمكن أن نفهم ... لم يشعر الإنسان بالحرارة بعد الهضم؟ ... و بضعفها في أثنائه؟ ... ولم يشعر بضعف الحيوية عند السمنة؟ .. وشدتها عند العكس . أما في حالة المرض فربما كان لضعف الصلة بين أعصاب العضو وحركته الدموية لضعف التغذية ، فتستمر الأعصاب مشحونة بالحرارة دون أن تجد لها مصرفا في مهمة أو وظيفة .

وقد شا كل الله بين الحيوانات في تكويناتها المعدنية من حيث تغلب معدن واحد في نوع منها وضعفه في آخر ؛ ليقع بينها شيء من التأثير والوحشية يساعد على الحياة والاحتفاظ بالنوع . فالقط مثلا يمكن أن نفهمه أنه يغلب على معظم خلاياه ثم جلده نحاس فقط ، لذلك لا يمكن أن يقع تحت تأثيره الفأر الذى يمكن أن نفهمه أنه من زهر الحديد لسرعة تسلخ جلده لأقل لمس ؛ كما أن كليهما لا يمكن أن يقع تحت تأثير الكلب إذ يقارب الإنسان في تكوينه ؛ لذلك كان بينهما ألفة غريبة . أما في الحيوانات الكبيرة فبشكل إجماعى ؛ وبفسب مختلفة في كل نوع ؛ حتى لا يؤدي هذا التأثير إلى غلبة نوع على نوع .

صراع بين جنسين على تفاضل

و بعد . . . فسنة الطبيعة تقتضى وجود هذا التأثير بين الأحياء ؛ وإننا لنلمسه فى منافسة بين أخوين ، وإذا زاد ربحا تحول إلى حسد ، ودخلت فيه عوامل الانتقام . وهو بعد دافع من دوافع النهوض ؛ ليتزود كل نوع بما يشاء من أسباب الحياة . وإذا قصرناه على مستطاع أوجد تفضلا ، وتفاضل أدعى إلى استمرار نهوض فى تجديد .

إن تجارب الحياة لا يمكن أن تؤثر فى النفس وفى تكوين العقل إلا إذا غرست على شدة فى الطبع ، وحدة فى المزاج ، وإنها لن تؤتى ثمرة إلا إذا كانت على انفصال بين جنس و جنس أو نوع ونوع لتصل به إلى استقلال فى رأى أو اعتزاز بشخصية أو قومية ، وإن أطيّب بذور المعرفة ، وأحسن غرس للحياة ما وصل إليه العقل بنفسه .

و بعد . . . فكيف خلق الله الجان ؟ . خلقهم على تفاضل فى التركيب المعدنى من الإنسان : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ؛ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ » . وهل كان الإنسان طيناً حتى فهمناه ، أو فهم نفسه كذلك . وقصر كثيرا فى حق نفسه . إنه سبحانه قد عبر عن ذلك فى تركيب آخر فى قوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ » . وهل كان الجان من نار بمعناها اللفظى حتى فهمناهم أجساماً نارية كما يشاع على خطأ فى الدين . . . إن ذلك لا يعدو أن يكون تفضلا فى التكوين بين معدن ومعدن ، وتفاوتاً أو سعة فى تفاوت فى درجة التأثير بينهما بالحرارة .

إنهم ليسوا أجساماً بشعة كما يصوره لنا خطأ في الخيال ، وإنهم يتمتعون بعالم علوى دونه عالم الإنسان ، وعلى حسب الثقل النوعى للمعادن والأجسام . وإن معدن تكوينهم ما يعرف بالنيازك ؛ وهى مجموعات من معادن أرقى وأخف ، وأخصها الذهب والنحاس . وهم يعيشون كما نعيش على ظهور الكواكب ؛ يأكلون ويشربون ؛ وخلفة أجسامهم امتازوا بالقدرة على أن يسبحوا بها فى الفضاء ، كما يسبح الإنسان على سطح الماء . وأما ذلك الفضاء فهو مياه غازية سريعة التطاير أخصها النوشادر والكحول . وقد تمتاز بطبقات ومستوى سطحى كما تمتاز بذلك مياه الترغ والأنهار . وكلانا فى الواقع يسير فى طريق جهاد واحد . هو إحالة لجة العالم إلى حالة غازية بما ننشره من أضواء كهربية وحرارة فى الوجود . ولعل الحياة وصلت إلى شىء من ذلك حيث قال سبحانه وتعالى : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ؛ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » .

إن مبدأ هذا الجهاد هو الوصول إلى المعرفة ، وتجارب الحياة عن استقلال فى الرأى ، واحتفاظ بمبدأ مودة بين الجنسين يجنبهما تطرفاً فى منافسة أو وقوعاً فى حسد وعداوة . ولكننا كلانا فى الواقع كنا من ذلك على طرفى نقيض . وحين خلق الله آدم كان الجان أو هذا الجنس من الخلق قد وصل فى معرفته أو مدنيته إلى شىء كان يخشى أن يكون موضع تلقين لابن آدم من البعض ، وإنه قد وصل بعقليته إلى إرسال أو تلقى إرسال نفهمه من قوله سبحانه : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » فى حين أن آدم لم يصل بعد إلى ضبط فى رغبته أو شهوته .

هذا وسجود أو طاعة تقع لآدم أو لواحد من بنيه من شيطان أو ما يسمى بشيطان أمر يدعو إلى الاستغراب .. إنه فى الواقع لم يكن إلا ابتلاء للجنسين

في المعرفة، ومقدار تأديب النفس . وإنه سبحانه قد جرب بنفسه ذكاء الشيطان ومقدار اعتزازه بشخصيته وكان ما كان . وترك ابتلاء بني آدم لشيطان على سياسة التخلي عن المسئولية في مفاضلة بين قوم وقوم .

إن الشيطان أو ما يسمى بشيطان حسب العرف الخاطئ ، كان أعقل من ابن آدم حين سجد لفرعون . وإن أمره بسجود وضع شاذ في الدين ، وإلا . . . فكيف يطيعه وهو على ثقافة أرقى ، ويتمركز في سمته من السماء . إن عداوة بين الجنسين كان أمرا مقصودا ليحتفظ كل جنس بمعلوماته وشخصيته . أو بمعلوماته ومعارفه . ولعل سجودا أو طاعة كهذه كان انتظارا لما يجد في الإنسانية من رجولة يجب أن تطاع رغم تفاضل في خلقه أو تكوين ، إذا كان أمر النهوض منافسة بين الجميع .

لذلك اختار أو اختير لشيطان سياسة الإمهال أو الانظار . على أن امتناعه عن السجود ما سمى الله عصيانا ، وما في القرآن آية تدل على أنه عصيان . وإنما العصيان كان من آدم وابن آدم . « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » .

إن شعورا بأفضلية لا يؤاخذ عليها شيطان لوجود بذورها في أصل تكوينه ؛ وإنما تؤاخذ عليها الإنسانية فيما بين الأخ وأخيه . وإن اعترافا بالهزيمة بعد كل منافسة أمر محمود في الدين والأخلاق . حسما للنزاع ، أو دفنا لدوافع وحشية وانتقام . أو على الأقل ليرقى الإنسان في شعوره وينتقل من حسد إلى شرف في المنافسة . ولعله سبحانه كان يقصد ذلك من شيطان . وإنه بعد . . سياسة في حلم ومداراة ، ولو اتخذ الإنسان مع الخطيء معه في صلابة من رأى لعاد من نفسه بعد حين إلى صواب ؛ وإنه بعد . . و بعد نيل

الإنسان قسطاً من التربية والتعليم طريق يعيش به على نهج صالح في الحياة .
هنا يمكن أن نقول إن الشيطان كان على خطأ في تفكير فقط ، أو إعداد
لجواب . وخطأ فكري كهذا لا يعاقب عليه دين أو قانون ، وإنما يؤاخذ عليه
شعور أو رأى عام . وإنا بعد وبعد هذا الشوط البعيد المدى في المدنية
والثقافة يجب أن نتخلص من عداوة ذكرت لنا ولهم في كثير من آى القرآن .
وأن لا نحفظ بها إلا لضعف في شخصية أو ضعف في دين ، كما يجب أن نفهم
أنهم لم يفرض عليهم موت أو فناء حين اختيرت لهم سياسة الأنظار ، وإن
إيمانهم ، أو مدار الإيمان عندهم الاعتراف بالمستقبل أو شيء منه لآدم وابن آدم .
إذا فقد كان بين الجنسين صراع فكري لا غير احتفظ الله فيه لآدم
بشيء من المؤدة . تقوية لجانب ضعف لسه فيه ، وقد فهمنا كيف اختبر ذكاء
شيطان ، أما ابن آدم فلم نعرف كيف ابتلى أو يبتلى من شيطان .
إنها في الواقع كانت سياسة تدمير لما يبنى على خطأ في حضارة ابن آدم
ومدنيته ، وقد فهمناها من ثنايا التاريخ ؛ أما آدم نفسه فقد ضلت في ابتلائه
وتدمير جنته بحوث كل دين .

قال تعالى : « وَيَا آدَمُ : اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ
حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » .
لقد شاع في كل دين أن هذه الشجرة كانت شجرة حنطة أو تفاح .
ولكنه سبحانه إذا أباح له الأكل من كل شيء . ثم منعه من واحدة منهما
كان مظلوما لا ظلما . . . وإذا فأى ظلم تشير إليه الآية ، وأى شجرة تلك ؟ . . .
وهل إذا أكل حنطة أو تفاحا كانا من الظالمين ؟

إن الأمر على غير ذلك كما أفهمه ، ويفهمه العقلاء . وإن شجرة تقصدها

الآية هي تسلسل الذرية والأعقاب . وقد أراها الله له في الحيوان ، وقد منعه من اقتراب زوجته حتى لا يكون له مثل ذلك قبل أن يعد لهم مهذا صالحا في الحياة .

إن شجرة ملعونة في القرآن لم تكن شجرة حنطة أو تفاح . وإن شجرة زقوم لم تكن إلا خطايا يقتربها الإنسان . وإنها تنتقل في النطفة بالوراثة من سب ولعن وكفر وغضب حتى نشأ الابن على شاكلة أبيه . «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس» . والشجرة الملعونة في القرآن . وَنُخَوِّفُهُمْ . فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا .

إن آدم لم يكن في جنة بالمعنى الشائع في الدين ، ولكنها جنة حسب العرف عند أهل الصحراء . وسكان البادية لنضوب معين الحياة بها . وإن تلك الجنة لا تعدوا أن تكون مكانا خصبا عند ملتقى دجلة بالفرات . ولكن هل كان فيها ما تخرجه يد الصناعة من آنية أو غزل ونسيج ؟ .. الخ . كلاً !! إذا فكان يجب على آدم قبل أن يعصى ربه باقترابه لزوجته أن يفكر ، ويجيد التفكير في إعداد ذلك ، حتى لا يظلم ذريته وبنيه بعري أو جوع ، أو يقف بالتغذية معهم عند تناول حبة أو اقتطاف ثمرة ؛ أما كسوته وحده أو هو وزوجه ، فقد كفلهما الله له إن لم يقرب زوجته . «إِنَّ لَكَ — وحدك — أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى » . وحين عجز عن الوصول إلى شيء من ذلك في تفكير أو ضبط شهوة ، خلى بينه وبين شيطان ليعرف علة المنع ، إذ لم يكن قد فهمها من قبل ، وحين حملت زوجته حملاً خفيفاً فهم أنه مخطيء ، وحين منع عنه لباسه بدت له سوءته وظن أن أوراق الشجر تكفيه مؤنة التفكير في ذلك ؛ ولكن هيهات . . . إذ اشتدت عليه وطأة الحياة .

و حين أيقن أنه غير ناجح رجع إلى ربه عليه يهتدى إلى صواب .

حينئذ احتدم الخصام بين إنس وجان ، و وقعت بين الفريقين منافسة يريد ها الله في الواقع للبناء والتكوين .

إن الحياة ليست هينة ، ولا يمكن أن تكون هينة ، ولا يريد ها الله سبحانه أن تقف عند العرض الأدنى في كل بناء وتكوين ، ولكنها يمكن أن تكون هينة بقليل من التفكير . وقد أوقع الله الفريقين في مأزق ، وأراد أن يتخلص كل واحد منهما من مأزقه بتفكير أو حسن تفكير .

إن اختبار آدم من هذه الناحية كان طفيفا ، إذ لم يطالبه سبحانه باختراع في اللاسلكي ، أو يبين له رأيا حديثا في أسس التربية ، ونظم الاقتصاد ، وإن الأمر في ذلك لا يعدو التفكير في الكفاف .

هذا ما كان من أمر هذا الصراع . من حيث المبدأ ، ومن حيث أنه وسيلة إلى الحياة ، ومن حيث أنه نظر إلى المستقبل ، ولقد أخطأ فيه الشيطان هو أيضا في حق نفسه ، وفي المبدأ من حيث أنه نهج وسياسة ؛ إذ لم يحتفظ له بشيء في رد الخطاب ، يمكن أن يرجع به إلى نفسه أو إلى ربه إذا نهضت الإنسانية وجد فيها نبوغ ، وتلك أيضا صلافة توصم بها السياسة في كل شيء ، في نفس أو أسرة ، أو في رئاسة وقيادة .

إن خضوع رئيس لمروءوس أمر واجب في بعض الأحيان ، وإلى حد ما ... إذا رأى فيه نبوغا يمكن أن يستغله لصالح مدرسة أو مصنع . الخ وإن ميدان المنافسة في كل شيء يجب أن يسوده شيء من الحرية بين الأفراد ليكون النهوض عاما والتجديد شاملا ، وحتى لا يتسلل البعض تحت تأثير حسن في رأى ، أو جهود في مبدأ .

إن الشيطان أو ما يسمى بشيطان ما عدل عن رأيه ، وما صرح بتعديل في موقفه ، وإنما ذلك يعرف بقرائن الأحوال ، ولعل ذلك سياسة تنتهج في بعض الأحيان . على أنه لا بد وأن يكون مع ذلك قد ساد البعض شيء من الحرية ، آمن في ظله من آمن من الجان عند بعث ما . . أو تجديد . أما هو فربما احتفظ لنفسه بالعترة من الإنسان .

ولقد كان الجان على استعداد أن يلقنوا الإنسانية شيئاً من التجديد ، ولكن الله سبحانه منعنا من ذلك ، وألقى في نفوسنا كثيراً من العداوة نحوهم لنصل إلى ذلك بأنفسنا فيكون له أثر في تكوين العقل وتربية النفس . وليقطع عليهم دوننا باب مجاملة ربما أخذوه سلاحاً علينا ، أو جعلوه طريقاً من تضعف أمامه بكل تأكيد نفوسنا واعتزازنا بإنسانيتنا . . . « أما هذا الاستعداد فمتى وإلى أي مدى كان . . . كان عند نشوء عقليات أمكن أن تتصل بالسماء . نشأ عنها تنجيم . أو عرافة . أو سحر تطور كل إلى تنبؤ أو طب أو إخبار بغيب ، وكلها قد نشأت في أحضانها رسالات وأدب وشعر وعلوم » . قال تعالى : « وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَا تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . . . وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا هَا هَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ، وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشَرًا أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . . . أَى بلوغاً إلى الحقيقة بعد رشد ونضوج في العقل — . . . قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلط من بين يديه ومن خلفه رصداً » .

تردد العقلية بين الهدم والبناء

وبعد . . . سياسة تلقين تنازعها تضليل . يضع بينهما استلهاً بيت من شعر، أو عزيمة من سحر!! متى يكون تلقين؟ أو يجوز سياسة في نشر تعليم؟ ومتى يباح تضليل؟ ويتخذ سياسة لتدمير؟

إن الأرض لا تتصل بالسماء إلا عن علم . ومتى نبئت فيه نابتة لابن آدم من تكوينه واستنتاجه استحققت أن تنمو وتردهر بوحى أو إلهام من السماء . هذا ومعرفة لتأليف بين عناصر الطبيعة لتكوين طلاء أو صناعة صابون ليست بأقل في قيمتها الصناعية من تكوين جملة أو تأليف كتاب .

وإننا حين نسأل أنفسنا... كيف اهتدى ابن آدم إلى الفكرة الأولى التي بنيت عليها صناعة الصابون . أو لم تزيل تلك المادة ما يضادفها من أقدار زيتية أو دهنية تستحيل إزالتها بغيرها أو بعنصر واحد من عناصرها لنالنا كثير من العجب . ولكنها في الواقع تجارب بنيت على تجارب ومشاهدات احتفظ لها بجانب رعاية من السماء . ولعل نوحاً لم يتيسر له أن يبني سفينته إلا بعد أن عرف شيئاً عن الثقل النوعي للأجسام . . ومناسبة بين تجويف ومقدار حمولة شأن كل استنتاج .

هذا ومعرفة في صناعة كانت أيسر على ابن آدم من حمل لواء معرفة نظرية أو علم عقلي . لوقوعها في تجاربه ، واستخلاصها من مشاهداته ، ولو أمكنه أن يأخذ معها قسطاً يوازئها من العلوم العقلية عن تفكير واستنتاج ما تدخل أو تحكم في سياسته شيطان .

إن القدر النظري الذي كان يحاول أن يصل إليه الإنسان في تأسيس أسرة أو تربية نشء أو تكوين جماعة كان كثيراً ما يصاب بإخلاف من السماء . وإن الإنتاج الفكري في ذلك كان عرضة لتضليل مادام لم تحققه مشاهدة أو يصل العقل فيه إلى يقين .

هذا وتردد نظرية أو رأى بين طرفين مما اختلفت به الإنسانية . وشقيقت به الحياة . ومادام هناك إمهال في بناء ؛ ولو على جهل أو طرف ضعيف في رأى فأوسع بها سياسة تضليل لهدم أو تدمير ؛ لتصل الإنسانية إلى صواب « وَبَيِّلُواكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(١) » .

وإذا كان الإنسان لم يضع لبننة صالحة في بناء العقل فعلى أى أساس يستجدي له وحيا من السماء . وإذا كان هناك أفضلية أو مساجلة بين جنس و جنس فلم يكون توسع في سياسة تلقين .

وبعد فإلى أى مدى كان اعتراف الشيطان بسياسة التلقين .

لقد قلنا إن الله سبحانه أراد من آدم وابن آدم أن يصل إلى المعرفة بنفسه . وإذا تلصقاً في فهم أوقعه في شيء من الحرج ، أو تركه ليوقع به شيطان ، ليستنتج ، وتترجى ذاكرته على استنتاج ؛ ولينتهى سبحانه بعد من سياسة التلقين . وإنه سبحانه قد أخذ على نفسه ألا يلحق ابن آدم شيئاً إلا إذا وصل إلى شيء من المعرفة يصح أن يكون نواة لبناء جديد .

(١) أى تعودون . فيعود كل إلى تجاربه يوم القيامة ليعرف ما فيها من خطأ وما فيها من صواب ويحاول بأى طريقة حسب فطنته وذكائه واستعداده الشخصى أن يتخلص من هذه الأخطاء ليبنى مستقبله على صحيح تجاربه .

ولقد كثر في القرآن الكريم آيات تحكيم للانسان أمثال قوله تعالى : « ثم يوم القيامة يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون » والواقع أنه لم يكن هناك تحكيم غير هذا . « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » .

هذا ما فرضه الله على نفسه في تكوين رسالة ، أو نشر هداية وإنه سبحانه قد احتفظ لنفسه بالجانب الأقوى من هذا البناء في المعرفة ، وترك الأدنى لعالم أوساحر ! . . يصل فيه إلى شيء . أما ما دون ذلك فقد تركه ليتخطه شيطان أو خارج على شيطان .

تلك سياسة أو حكمة في سياسة ، ومع ذلك فما اعترف بها شيطان وما تنازل بها عن مبدئه .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى . . . أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ؛ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

إن آدم حين عرف خطأه ، وحين رجع إلى ربه ، تلقى منه كلمات لا تعدو المبادئ الأولى لنظام الأسرة أو القبيلة ، أما إعداد الثوب ، وآنية الطعام فقد وصل إليه بنفسه بعد الحرج ، وإن ضالة هذا القدر الملقن مع كل رسالة لم تسمح لشيطان بالسكوت ، إذ كان يريد لها أيضا من إنتاجه لتصحح بها المساجلة عندما تلتقى المعرفتان يوم القيامة . وإلا فهو على حق في امتناعه عن تقديم شيء من الطاعة لآدم .

هذا وما دام ابن آدم يتعثر في طريقه إلى الحياة الصحيحة فالإحراج أمر يقره العقل ما دامت هناك مساجلة ؛ وما دام هناك غرض أسى في الحياة ، وما دام هناك نفاية لكل تجربة ؛ أو على الأقل لتسرع الإنسانية إلى التخلص

من أخطائها . وهذا خير من بقاء على قديم أو استرسال في ضلال .
إن إضلال شيطان لا يعدو أن يكون إحراجا لإنسان ما ... وبقدر ما ...
حسب حساسيته وشعوره في الأولى والآخرة ، وإن النفس كثيرا ما تصل إلى
الحقيقة عن طريق الخطأ أو الوقوع فيه . وإن تجارب الحياة كتلك التي نقيمهها
في بوتقة أو أنبوبة اختبار . وقد تصل تجربة إلى نجاح وتحتاج أخرى إلى تغيير
لخطأ في نسب أو أوضاع . وإننا لن نصل إلى هذه أو تلك إلا بعد نظر
ومشاهدة واعتبار .

لقد شاع على خطأ في الدين أن الشيطان يأخذ الإضلال على طول الطريق .
وذلك في الواقع لا يقره أى عقل . إنه ليس له إلا العثرة الثانية من ابن آدم .
أما الأولى فمن حمايته أو انحلال في عزيمته ، فإذا اهتدى وإلا فقد أظهره لربه
على عجز وسوء بصيرة أو أنه على الأقل لا يصح أن يسجد له ، أو أن يطاع .
« وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ الْحَقَّ وَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ . وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ
لِي . فَلَا تَلُمُونِي ، وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ،
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ — أَيُّهَا الْجِنَّتُ إِلَيْهِ لَأُخْبِرَكُمْ —
إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

إن الشيطان في الواقع لا يدخل إلى ابن آدم إلا حين يخطئ ، وإنه
سبحانه ليلتزم جانب الصمت ليعرف الخطئ صوابه من عثرته . وعثرة بعد
عثرة تصل العظة من النفس وتأخذ لها نهجا ما . . . صالحا في الحياة .

إنه سبحانه أعز من أن يصحح أخطاء الإنسانية يوما بعد يوم . وإنه سبحانه

لا يأخذ لنفسه إلا جانب الهداية من ابن آدم . وأما ما ذكر في آى القرآن من عداوة لـشيطان إنما هى عبرة لابن آدم ليأخذ بها حذره فى ثانية الوقائع . فإن أجـدت؛ ولو فى عزم، ومراجعة للنفس فـعـظة وهداية . وإلا فـجـمـع لأشـلاء كل تجربة تبتـلعه سياسة هدم أو تدمير عند شيخوخة كل إقطاعية أو مملكة «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا؛ فَفَسَقُوا فِيهَا؛ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا هَاتَئِن مِّثْرًا» . إن سياسة شيطان ليست سياسة استقرار حتى يعترف بها من السماء ، بل سياسة تركين يمتاز بها مبدأ عن مبدأ ، ويتفاوت بها رأى عن رأى ، لتختلف وجوه الأخذ به . وهى بعد سياسة خلق المشاكل ، ليصل العقل فى حلها إلى شىء إن تنازلا ما ... عن اعتزاز بجنسية مما اختلفت به الحياة العقلية فى الأرض وفى السماء . وإنها لسياسة مقصودة من كلا طرفين ؛ حتى إذا ضلت الحقيقة طريقها وجدت لها أنصاراً من هؤلاء أو هؤلاء عند تكوين المذاهب وتركيز الآراء .

* * *

و بعد فلقد أمكن لهذه السياسة من جوانبها الثلاثة قبيل بعث نوح عليه السلام ، أو فى القرن الأربعين قبل الميلاد أن تكون فى العقلية شيئاً يسمى غنى وآخر يسمى فقراً تعددت بهما الأوساط . وأمكنها أن توجد فيها قوة تميز تفهم به شيئاً ما . . . يسمى خيراً وآخر يسمى شراً ، كما أمكنها أن تكون فى النفس حباً لأسرة أو تعلقاً بقراية^(١) ، ووطن فى خلية ما ، أو نوع من أنواع الحياة ، ونزوعاً إلى التخلص من ذلك فى نسب أو هجرة .

(١) « ونادى نوح ربه . فقال : رب إن ابني من أهلى . وإن وعدك الحق . وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك لأنه عمل غير صالح . » أى تركيز الإنسانية فى بقعة واحدة من الأرض لا تصلح به الحياة وسيؤدى إلى فقر أو حرب عند زيادة العدد فى السكان .

ولقد كانت تجارب الحياة^(١) لذلك الحين كثيراً ما تخطي أو تصيب . تخطي في تعدد حوادث الغرق ، أو تصيب في كشف مجاهل الطبيعة بشكل صح به استبدال وطن بوطن ، أو نعيم بيؤس ، أو قرابة بقرابة . وبين هذه وتلك استطاعت تلك السياسة ، أو ساعدت على أن ينال فريق نيلاً من فريق بلغة ما . . . في سباب أو مشاحنة . كما أمكنت في جانب ما . . من جوانبها الثلاثة أن يقول البعض لنوح : « مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » أي فيما تدعونه من كشف لمجاهل الأرض .

إن نوحاً كان يجيب في احتراس وفي مدى هذا الاكتشاف إذ يقول : « وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ . وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ — كما تقولون — لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا — أي لن يصلوا إلى أمنية في كشف مجاهل الأرض .

إن الله سبحانه ما أرسل نوحاً ليبنى سفينة فحسب ؛ بل ليساعد الإنسانية على تجشم الأخطار . ويعلمها كيف تضع نواة بناء فيما وراء البحار . وإن رسالته ما وقفت عند حمولة واحدة لسفينته كما نفهمه في الدين . وبفضله انتقلت الحياة من شواطئ الفرات إلى ضفاف النيل . وحين شرف الوادي ناداه ربه « أَنْ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا . وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ . وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ . وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ . ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

وبعد . . فهل اعترف الشيطان بسفينة نوح ؟! . . كلا!!! إنه لم يعترف بها ، لأنها أوحيت ، وأوحى تكوينها من السماء ، وإن جملة الاستهزاءات التي

ألقيت عليه ، ليتراجع في بنائها انتقلت إلى سياسة ترغيب وترهيب من الجانبين في حملة كل فوج . ولو كان هناك إنتاج فكري أو لغوي يجيد به نوح فن الدعاية لآمن به كثير .

لقد نجح نوح نجاحا ما . . . وكان لكل خلية من خلاياه بقية ما زالت تؤثر بقاء على فقر إبقاء لقراءة أو جنوحا إلى كسل ، وإيهم ما كانوا إلا ليتحقق فيهم جانب الهدم لرسالته . هذا شأن كل رسالة . هدم و بناء . و بناء على بناء : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ . فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا ، لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ . فَأَنْجَيْنَاهُمْ . وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » .

لقد كان نوح أقدر على فهم الحياة من آدم . وقد أمكنه أن يخلق فن الملاحظة ، و يقيمه على أساس استطاع به أن يقلل من حوادث الغرق . ولقد مد له في العمر حتى يبني المعرفة على أساس ولو في علم مشاهد الطبيعة وتقويم البلدان . وحين أتم رسالته كان قد تحقق للعقلية قسط من الآراء والأفكار عاشت عليه ؛ وقد تطور فيما بعد إلى عقائد في الدين . ومذاهب في الزواج . ومبادئ في طرق الكسب أو الأخذ بأسباب الحياة .

وبعد . . . فهذا صنيع أو بداية صنيع قدمه نوح لنذرية آدم . وإن توالى الأيام ربما رد هذا الصنيع لنذرية نوح . وربما انتخبت الحياة منهما نسلا صالحا للبناء والتعمير . وربما انتقلت مع هؤلاء وهؤلاء بالوراثة صناعة نحت لآدم . و بناء سفن لنوح . فظهرت الأولى عند قدامى المصريين ، وظهرت عليها قوميتهم وظهرت الثانية على ضفاف الشام . وكانت نواة للفينيقيين . هذا بعد امتزاج الاثنين في معرفة أو مصاهرة .

النشأة العلمية

و بعد فلعل سياسة نوح قد أنتجت . ولعل خلاياه قد نمت وتحولت إلى إقطاعيات وممالك . ولعل الإنسانية قد برز فيها من يصلح للرئاسة . ولعل حياة علمية نشأت ، وأنتجت شخصيات ، ولكن إلى أى حد كانت هذه الحياة أو تلك العقليات . ! إن ذلك شيء لم يقصه لنا التاريخ . ذلك التاريخ أقصد به تاريخ العلوم . ولعلنى أقصد بذلك أن أدون للعلوم نشأة ، ولتكوينها بداية .

ولئن علم الله آدم الأسماء كلها فما امتنع أن يمد نوحا وأعوان نوح عن طريق الإلهام أو التلقين شيئا عن بواعث الحياة من ولادة واستنبات ، ولعل أول العلوم نشأة علم مشاهد الطبيعة وفن إقامة القرى والبلدان ، ولعلمهم قد فهموا شيئا عن هندسة المباني وتحديد المساحات . وربما قد فهموا شيئا عن الحقوق والواجبات . وإن ذلك كله من حيث مقدار العقلية ما كان يعدو أن يكون شبيها بعقلية تلميذ أو رحلة تلميذ إلى مزرعة أو نموذج من القرى .

ومن قبل كانت حوادث الفرق قد أوجدت فى النفس فرقا بين حياة وموت احتفظ به لمن فقد الحياة بشيء من الحب أو نوع من أنواع الطاعة أو العبادة إذا كان عاهل أسرة أو رب جماعة .

وإذا خشيت جماعة أن تضع من الذاكرة ملامح عاهلها وتقاسيم وجهه نسجتها فى صورة من الحجارة ؛ ثم قدمت له شيئا من الطاعة ، أو العبادة اعترافا بما قدم لها من خدمة ؛ واحتفاظا بما له من شخصية وقرابة .

ولقد كانت صناعة النحت مازالت في أيديهم ، انتقلت إليهم بالوراثة عن آدم حين كان يتخذ آنيته من الحجارة . هذا إلى أن القوم كانوا قد مروا على فن المحاكاة والتقليد ؛ إذ كانوا يعمدون إليه كثيرا ليكون أداة تعبير إذا جمدت في أيديهم ، وعلى ألسنتهم ألفاظ اللغة . وهذا أو ذاك مما جعل المصريين يبرعون في التصوير وصناعة التماثيل . وتدعيم المعابد والصروح .

ولقد كانت صناعة تمثال أسبق إلى العقلية من أى فن آخر . وما زال هذا الفن يشغل حيزا كبيرا من عقلية الطفل . ولقد كنا على عفو نلهو به أثناء الطفولة وكنا نقيم به تمثالا لطير أو جمل . وكنا نتخذها من الطين . وقد أدخلت حديثا فقط في نظام المدارس لاختبار ذكاء الطفولة ، وإعطائها شيئا من المزان عليها تنتحى لها فنا إن عجزت عن مزاولة العلوم .

ولقد كانت وما زالت نشأة فنون أسبق إلى العقل من نشأة العلوم . وكان مجال السبق فيها وفي الحضارة واسعا عند قدامى المصريين مما دعى إلى تعجيز أو تبطؤ فيهما على يد كثير من البعوث ؛ حتى يأخذ العقل بنصيب من الفلسفة والعلوم . وحتى يُرغم على إجادة التفكير فيما وراء الطبيعة .

هذا ما يمكن أن نقوله عن الحياة العلمية إذ ذاك ، كيف نشأت . . . وفي أيدينا إلى أى حد وصلت . أما الحياة الروحية فيمكن أن نخوض إليها طريقا وفي أيدينا من الحياة العلمية غبار .

لقد سارت الحياة الروحية إلى التكوين مع النشأة العلمية ، وارتبطت بها ارتباطا السبب بالنسب ؛ وسار معها الوحي كعامل تصديق بعد المشاهدة والاستنتاج ، أو المقارنة بين قديم وجديد . وإذا قلنا كل جديد لذى هذه

العقلية فهمنا أثره في النفس عند المشاهدة ، أو بعد المقارنة ؛ وعلمنا مدى ذلك في تثبيت دعائم الحياة الروحية والعلمية في النفوس .

ليست الحياة الروحية قديما كما نفهمه نحن من أنهم كانوا يعبدون إلهًا واحدًا ثم نكصوا عنه إلى عبادة تماثيل أو حب أصنام ، بل الأمر بالعكس ؛ وإنهم ما وصلوا إلى التوحيد إلا عن هذه العبادة . هذا للعامة . أما الخاصة وطبقة الرؤساء فقد كانوا يفهمون التوحيد كما نفهمه نحن .

ولقد كان الفرق شامعا بين عقلية رئيس وفرد ما . . . من أفراد العامة . وكان مدار التعليم أو سياسته ، أو انتقال فرد من عامية إلى تعليم ورئاسة يتوقف على نياله قسطا من المعرفة يؤهله ؛ أو يصل به إلى فهم شيء عن ذلك التوحيد . وقد كان الرؤساء كثيرا ما يضمنون به لتبقى فيهم رئاسة أو سيطرة . وقد كانت العامة تقدم لكل رئيس شيئا من الطاعة أو العبادة ؛ لا على أنه إله كما فهمناه عنهم ، بل على أنه وسيط إله يمكن أن يتقبل عنهم حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم . وتلك هي الوثنية ، أو الإثنينية في العبادة ، عبادة من اثنين أو طرفين لطرف آخر مجهول ، أو عبادة لاثنين أحدهما هذا الطرف المجهول . فإذا عجزت العامة عن فهم هذا الطرف المجهول في أثر من آثار قدرته قصرت عبادتها على هذا الوسيط ؛ على أنها لم تكن عبادة بالمعنى المعروف ؛ إذ لم تكن تتعدى الطاعة والخضوع ، وما بأيدينا منها هو تقويمها الأخير .

هذا . . . أما ارتباط أسباب بين سماء وأرض فذلك لم يفهمه إلا القليل ، وما كان ذلك لشيء إلا لأن اللغة لم تكن أداة تفاهم بالمعنى الصحيح ، كما لم تكن هناك لغة عبرية كما يُظن لإبراهيم . وما نزل عليه منها لا يتعدى ألقاظا أساسية في أصل اللغة ، وفي ضروريات الحياة من سمع وبصر وأكل وشرب

وذهاب ومجىء . . . وكان المعنى يبني على حرف فقط أو حرفين من هذه الألفاظ^(١) . . . الخ .

لذلك كثيرا ما كان يعجز هذا الوسيط عن تأدية تعبير ، أو تبليغ معنى إلى عقلية العامة عن طريق اللغة . وكثيرا ما كانت تتصادم عقلية عامة ارتقت بعقلية عاقل أو رئيس . وكثيرا ما كان يقع سوء تفاهم بين الفريقين .

وقد كانت رسالة كل عاقل أو رئيس كثيرا ما تقف عند أقوال مأثورة عنهم ، تلك هي : « مُحَالٌ عَلَى مَنْ يَفْنَى أَنْ يُزِيلَ النَّقَابَ عَمَّنْ لَا يَفْنَى » . فإذا أدى هذا العاقل هذا المعنى في أى عبارة توقف خصمه عن خوض سبيل ما . . إلى المعرفة مكثفيا أو مقتنعا بما وصل إليه من زاد علمي ، وإن لم يصل به بعد إلى درجة التحقيق . لذلك كثيرا ما كانت تحشوه الخرافات .

هذا وإذا كانت العقلية في أى عصر مجموعة من معارف العصر الأولى بعد الزيادة والتنقيح فأى عقلية كانت لهؤلاء ؛ وأى عصر أو معرفة سبقتهم حتى نحكم بأنهم كانت لهم عقلية تفهم التوحيد . إن ذلك كان مداره النبوغ عند البعض ؛ وعند الآخرين كان يقف عند عقلية ساذجة ؛ لا تزيد على أن تكون كقولنا زمن الطفولة أو المراهقة .

إن طفلا ما . . . إذا سأل أباه عن شيء وجد بالمنزل ، وقال بلغته « مِينْ جَابُو » ، فأجابه أبوه على سبيل المداعبة : « جابور بنا » إن الطفل لا بد سينصده ، ولكن بعد يوم سيسأل : ولم لم يزرنا ، أو لم لم أره عند تقديم هذا الشيء ، أو تلك الهدية . إن الوالد إذا عجز عن الإجابة ، وشبهنا عجزه بانقطاع

(١) سنفرد لذلك موضوعا خاصاً

الوحي أو الإلهام بموت نبيّ أو رئيس أمكننا أن نفهم مقدار الحيرة التي كان يقع فيها هؤلاء وهؤلاء ، وإن خليفة نبيّ أو رئيس إن لم يكن قد أعد لذلك عدته ضلت العقلية ورجعت إلى القديم ، أو تناسته لتلهو في أحضان الطبيعة ، كما يلهو الأطفال ؛ أو تلهو في صناعة نموذج لآنية أو تمثال .

إن العقلية كان لابد لها من إنتاج على أكثر فأكثر حتى تنتقل بسرعة من محسوس إلى معقول ؛ وحتى تتربى فيها قوة خيال تمكنها من ربط السبب بالمسبب ، أو الوجود بالوجود ، ولكن الأمر كان من ذلك على نقيض ؛ فأبطأ بها المسير ، ووقفت بمعرقتها عند دائرة المحسوس .

هذه هي العبادة الأولى ، أو الخضوع الأول للإنسانية . خضوع كخضوع الطفولة زمن المراهقة ، وعقلية كعقليتها ، وليس لنا أن ننكرها عليهم ، إلا إذا استمرأها البعض ، وثبتت بها لغرض ما ؛ حين تتجدد المعلومات ، وترتقى عقول من العامة ، وتفهم أن تلك العبادة في غير موضعها ؛ أو أنها يجب أن تنقل إلى حالة أرقى . . . وهذا موضع كل رسالة ، وإنه سبحانه « أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

كيف نشأت عقائد في الدين

لقد جاء القرن الثلاثون قبل الميلاد والقوم لا يعرفون رابطة بين سماء وأرض سوى حركة الشمس الظاهرية؛ وحركة الكواكب . أما المسيطر على هذه الحركة، أو المنظم لها فما زال أمره ، أو أمر توضيح قدرته غامضا في عقلية عامة أو عقلية رئيس .

ولقد كانت الحياة أو ما زالت مركزة في أسرة ، أو قبيلة . ولقد كانت أيضا أو ما زالت صلة بين حاكم ومحكوم مبنية على قرابة أو ما يشبه قرابة ؛ لذلك لم يكن غريبا عليهم أن يتعلقوا برئيس قُـيـدَ أو طواه الموت ؛ ولم يكن غريبا أن يحتفظوا بصورته في تمثال^(١) ؛ يتذكرون به ماضيه معهم ؛ وحسن صنيعه فيهم . وربما وصلت هذه الذكري إلى حُبٍّ يقرب من العبادة أو الطاعة عند المقارنة بين رئيس مضى ورئيس ؛ وربما أنكرها البعض على البعض عند تغطية عمل رئيس على عمل رئيس . وربما رآها البعض أن الأولى بها مَنْ على قَيْدِ الحياة ؛ أو من يستطيع أن يسدل على الأسرة شيئا من النعيم . أو من ستهبه الأيام للمستقبل . لهذا أو ذاك بقي القوم في حيرة من أمر دينهم وعقائدهم .

على أننا إذا حللنا كلمة « آشور^(٢) » تحليلا لغويا ، نجد أنها تقرب من لفظ

(١) قال تعالى « وقال : أي إبراهيم — إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض . ويلعن بعضكم بعضا » .

(٢) إله عبد لذلّك الحين .

«آزر»^(١). ومن لفظ. «أسرة»^(٢). ثم نجد. «الشين». قد تطور في النطق، وفي بعض الألفاظ إلى حاء أو خاء، وهذا أو ذاك يدلنا على أن كلمة آشور، أو الآشورية كان يراد بها معنى التحوير في العبادة. أو الأخروية في الحياة؛ وعدم التمسك بالماضي. أو التطلع إلى نجاة في الأبناء لتستطيع كل أسرة أن تثبت بهم مجد الآباء.

وإننا إذا تصفحنا التاريخ بعد إبراهيم وبنوة إبراهيم نجد أقواما في شمال دجلة والفرات عبدوا إلها يسمى «أنا ليل». وبتحليل هذا اللفظ تحليلا لغويا نجده كإسرائيل وإسماعيل؛ ولعله يراد به نيل الله وعطاؤه كما يراد بإسماعيل سمع الله، وإسرائيل نور الله أو هدايته ومؤازرته. ولعل أنا ليل هذا سبب من أسباط إبراهيم. ولعله أفاض على الإنسانية شيئا من النعم أمكنه أن يتخذ به ذكره في نفوس القوم. وهذا يدلنا على أن الحياة لذلك العهد؛ وفي أكبر مساحة من الأرض كانت لإبراهيم وبنوة إبراهيم. وأن إبراهيم ما كان في الوضع الذي فرضه له التاريخ.

ولقد يقص لنا هذا التاريخ أن الحياة على ضفاف دجلة والفرات بعد حين كانت في شدة. وكثيرا ما نشبت الحروب بين أرباب الأسر والإقطاعيات من أجل التاج. أما ذلك التاج فلا اعتقد أنه أكثر من المقطع «أل» أو «إيل» يضاف إلى اسم الغالب كما في السموعل. أي سماء الله ورحمته. وصمويل أي سكوته عندما يدلهم الأمر ويعظم الخطب. وإننا إذا حللنا هذا المقطع «إيل» تحليلا لغويا نجده القدر الفكري أو اللغوي الذي وصلت إليه الإنسانية في

(١) آزر هو أبو إبراهيم.

(٢) لمقاربة بين السين والشين والزاي في وضع اللغة.

معنى التوحيد ، ولقد بقي اسم الله عند البعض حتى في العهود القريبة من الإسلام وقد جاء في المأثور عن أبي بكر الصديق حين أنكر على مسيئة نبوة ، وحين سألهم عن أسجاعه أنه قال لهم : « إِنَّ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ إِلٌّ وَلَا بَرٌّ » . ولعل هؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ^(١) فَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ؛ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . »

ولقد بُعِثَ إبراهيم والعقيلة تتنازعها آراء ومبادئ تحتاج إلى تصفية أو تركيز ، إذ وجد أقواما يفهمون الطرف المجهول الحركة الظاهرية للكواكب ؛ وآخرين ما زالوا يعكفون على أصنام لهم وإن تقادمت بها العهود . ومن بين هؤلاء وهؤلاء بعضا يريد الحياة والتجديد ؛ وإنهم جميعا ما زالوا على سذاجة في العبادة ومقدار الحجة . وإن إبراهيم أيضا كان على سذاجة في فهم معنى التوحيد حين عبد الكواكب ، وحين راجع نفسه فيها ، ولكنه كان أبلغ حجة ، وأقدر فهما حين أوجد لها في عقليته خالقا ، وحين عارض القوم في عبادة تماثيل ؛ وإن القوم كانوا يفهمون أنهم على سذاجة حين رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، وربما كانوا يفهمون أن العبادة يجب أن تقدم لآشور . إله مجهول أو إنسان منتظر ، ستحققه الأيام ؛ أو ستتمخض عنه الحوادث ، أو ستصل الإنسانية إلى فهمه بعد حين . وإن إبراهيم ربما كان من حجبهم معهم أن قال لهم ... « إِنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي أَيْضًا قَدْ مَاتَ ، وَإِذَا فَتُطِيعَ آخَرٌ . أَوْ نَعْبُدُ آشُورَ » .

(١) يراد بهذا الحرف حرف التعريف وهو أل . وسنوضح كيف تدرج إلى لفظ الجلالة أى و الله في باب خاص باللغة .

إن إبراهيم لا يقصد إلها بكلمة آشور ، ولعله يريد ، إن ساعدناه على أداء المنطق أن يقول لهم : إن الحياة في تجدد ، والطاعة لمن يولد من نوابع الأسرة أو القبيلة أو الإنسانية عامة ، وهذا نص قد دون له في شريعته ، وأُخِذَ عَنْهُ ، أَوْ أُخِذَ عَنْهُ بعد وفاته ، ووفاة من وليه من ذريته ، وكان موضع خلاف بين طبقة المفكرين ، وعلماء هذه الأجيال ، أما العامة فقد وقفت عقليتهم عند آشور على أنه إله وإنسان منتظر توهب له الحياة ، ولا يعتريه موت أو فناء . وأما هؤلاء المفكرون فما زالوا منه على خلاف ، أو من ناحيته بقي صمت مادامت العبادة لا يقصد بها قليل أو كثير سوى تنظيم المعاملات ، وأحوال الاجتماع .

وعلى كل فقد تمكن آشور من العقلية على ضفاف بابل في عهد إبراهيم ، وبعد إبراهيم ، وأمكن أن يخلص القوم من عبادة الماضي ، أو التمسك بالذكريات . لذلك أثر عنهم عدم الاعتناء بموتاهم ؛ إذ كانوا يرمون جثثهم طعمة لوحش أو طير . وهذا مبدأ توضحية وفداء عُرِفَ به إبراهيم حين همَّ بذبح ابنه إسماعيل ، وحين فهم أن شريعته ، أو فكرته في الحياة لا يمكن أن تقوم إلا على فداء . وما زال إبراهيم يُجَدُّ في الحياة حتى أقام إمبراطورية آشور . وحين دون أحد المؤرخين عن رجالها أنهم كانوا لا يعترفون بالآخرة ؛ ولا يرجون فيها حسابا بسبب إهمالهم لموتاهم كان يدون خطأ في التاريخ ؛ ولعله رأى مستشرق متشبع بفكرة قدامى المصريين في عودة الروح .

هذه عقيدة أو ناحية من عقيدة ؛ تؤثر المستقبل ، وتتطلع إلى كل جديد ؛ وما زالت في كل عصر تنتظر آشور ؛ لذلك كلما جد جديد من عطاء

التاريخ ، ووقع في قبضة الموت تركوه لينتظروا غيره ؛ لذلك لم يعرف عنهم تشييد معابد ، أو اعتناء بقبور .

وحينما كان إبراهيم يأخذ القوم بهذه العقيدة ؛ كانت بينهم فئة تؤثر الماضي ؛ وتسبند عليه ؛ وتؤيده بعودة الروح .

وقد كان إبراهيم من قبل — وحين أراد أن يدعم أركان دولته على شيء من التضحية ضد معانديه ، أو من لم يستطيعوا أن يفهموه — قد هم بذبح ابنه إسماعيل ليرى فيه من ربه كيف تعاد الروح إلى الجسد ، ولكنه تراجع تحت تأثير من أنصاره مؤثرين تلك في حيوان ، وحينئذ قال لربه : « رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ . قَالَ : بَلَى . وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ . فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ؛ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا . وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » وحين أصبحت تلك له آية ، اطمأنت تلك الفئة إلى مذهبها في العبادة ، ولكنها كانت بعده موضع فتنة لا تقل عن فتنة الخوارج في الإسلام .

لقد فهم العامة ، وتحققوا عودة الروح إلى الجسد ؛ ولكنهم اختلفوا أتعاد إلى جسم الدنيا أم إلى جسم جديد في الآخرة . وما كان لإبراهيم أو كان على قيد الحياة ، والراسخين في العلم من بعده أن يدينوا بالأولى ؛ وإن كانت من نصيب آخرين .

لقد فكر هؤلاء في التوفيق بين ماضٍ وجديد . ورأوا أن يحتفظوا للروح بجسد الدنيا . حتى لا يقول لهم أحد كما قال لهم إبراهيم من قبل : « فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ » . وحينئذ تسابقوا لتدعيم فن التحنيط ؛ وكانوا من قبل قد فهموه أو شيئاً منه في تجفيف السمك ، أو تحنيطه . ولما تم لهم ذلك

أصبحت عودة الروح عقيدة أو ناحية من عقيدة ، واختصت بها فيما بعد فئة من ذرية إبراهيم عاشت مع خلاصة من ذرية نوح على ضفاف النيل قبل أن يعرف به نظام الأسرات بكثير . ولكنهما ما كانا يعيشان على وئام ؛ وما لبث أن انقسم بهما الوادى ؛ فاختصت تلك الفئة بشماله ؛ وارتد الساميون إلى الجنوب . وقد سمي التاريخ هذه الفئة بأنصاف الآلهة حينما اختلفوا هم أيضا على أنفسهم فى تنافسهم من أجل التاج . وحينما عجزوا عن تحقيق شىء من دواعيه ومؤهلاته كان الواقع يؤذن برسالة ليوسف . وهذه الفئة هم الأرباب المتفرقون الذين أفتى فيهم بقوله : « يَا صَاحِبِ السِّجْنِ : أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ... أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ ، وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ... » .

و بعد ... فهذه نواة العبادة عند قدامى المصريين . عبادة لحفظ ذكريات على النقيض من عبادة آشور . وبين هذه وتلك كانت تلك التى تختص بمقطعين فى التسمية أحدهما لله كما فى إسماعيل وإسرائيل ؛ ولعلها كانت أقرب إلى التوحيد عند العامة من هاتين .

هذه هى الحياة الروحية إلى ما قبل القرن العشرين قبل الميلاد . وقد كانت الحياة السياسية ، والأحوال الاجتماعية معها على وئام فى جميع بقاع المعمورة فى مصر وغير مصر . وإننا إذا وازنا لها بين حالتى نجاح ورسوب فإننا لا نستطيع أن نحكم لها بنجاح إلا فى نمط واحد فقط . ذلك النمط وهو الذى يحوطه شىء قليل أو كثير من الحكمة ، وضبط النفس . وهو الذى بقى لله مع الرعية بين بعث وبعث . واختص به الرؤساء أيا كانوا ، فى أى زمن ، وفى أى جيل .

إننا فى الواقع إذا حدثنا فى قديم أو حديث ، أو جودلنا فى شأن رئيس ما ...

أو زعيم قبيلة فإننا يجب أن نعتقد أنه كان على إلهام ما . . . من ربه ، أو على الأقل أنه ما اختير إلا لأن لديه شيئاً من الاستعداد للإصلاح والتنفيذ ؛ أما ما يثار حوله من غبار ، قليل أو كثير لإحراجة أو الاستبدال به . فذلك يرجع إلى مقدار ما عنده من ليونة وصبر في السياسة ، وربما كان ذلك لاختبار هذه أو ذاك فيه . وربما دفع المجادلون إلى جدالهم فيه بإلهام ليعدل موقفه ؛ أو يقع به الاستبدال . أما إذا تحدثنا عن شالترار وبختنصر ، وسنخاريب . . . الخ فيجب أن نعتقد أنهم مختارون ، أو مسلطون لإصلاح الرعية ، وربطها بين حقوق وواجبات .

مبدأ الاختيار للرئاسة^(١)

لقد وصف الله الإنسانية بالجهل حين « خَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ » . وحين استنكر خبثا فيهم أو عليهم بقوله تعالى : « أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ . أَلَيْسَ لَكُمُ الرَّجَالُ شَهْوَةٌ مِثْلَ ذُنُوبِ النِّسَاءِ ؟ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » . ولقد سجله الله نقصا في الإنسانية ؛ لأنه يخالف الرجولة ويسير بالعكس مع تكوين الشخصية ؛ وفوق ذلك فهو يغلب الأنوثة في تسلسل الذرية والأعقاب ، كما يؤدي إلى الإشكال في أعضاء التناسل .

وهذا الخبث وإن أدى إلى اعوجاج في تسلسل الذرية بين أنوثة وذكورة فهو كذلك يؤدي إلى اعوجاج في وراثة العلم والمعرفة

إن بنوة ما بنوة أفكار قبل أن تكون بنوة أجسام ، وإن رجولة تخضع لهذا الخبث أو تقع تحت تأثيره تلقن بنوتها في الجنين جهلا وغباوة ؛ لذلك اتخذ له طريق تجنب منذ نشوء المعرفة حتى لا تبطل الإنسانية في نشوئها العقلي ، أو تتخلف بها الحضارة عن ارتقاء وتجديد .

إن لكل يوم جديده في المعرفة . ومعرفة البنوة حسب كل تجديد تأتي . أرفع شأننا من معرفة الأبوة مهما كانت . فإذا فرضناها — وهو الواقع —

(١) هذا الموضوع لأسجلاه كقانون أو مادة دستورية يقوم عليها اختيار موظف أو رئيس . بل أقصد به الناحية الإلهامية من السماء . وهو هو في كلتا ناحيته . ولقد كان لهذا الموضوع ناحية إيجابية كنتيجة لسياسة التعليم في كل عصر بعد أن أخذ بها تطبيقه في سياسة وظائف وموظفين .

جهلا وغباوة عند اقتراف هذا الإثم انتقلت بعامل الوراثة الفكرية في البنوة
جهلا وغباوة كذلك . وهذا بالطبع تبطىء لمعرفة الأبناء . وتوقيف لسنة
التقدم . واعوجاج أو أداة اعوجاج في تاريخ السياسة^(١)
لقد كان كفى ما يلقي في الأرحام من غباوة ، وكان كفى عبثا على رجال
التعليم أن يخلصوا الأبناء من نوازع الأمومة التي انتقلت إليهم بالوراثة في
أصل تكوين الجنين .

إن مناط التعليم تربية المواهب في النشء على شيء من الاعتزاز
بالشخصية ؛ حتى يشعر أن له صفات مكتسبة يجب أن تصل به إلى رجولة ،
وأن له شأنا آخر غير شأن الأنوثة ، ووظيفة أخرى غير وظيفتها ، وأن له تعاليم
ونظما في الحياة غير نظم الأمومة ، وواجبات الأمومة .

إننا إذا وصلنا بالأنوثة إلى مثل ذلك أمكنا أن نفصل بين طباع
وطباع . طباع منورثة في بنت عن أبوة ؛ وأخرى في ابن عن أمومة ، وإننا
بذلك نكون قد حددنا لكل موقفه في الحياة .

إن عملا يسير بالتعليم على نمط سلبي خبث ينكرة العقل . ولا يقره دين
وإن عقلية تركز إليه لتدافع به عن كيائها يجب أن تقع تحت طائلة من
العقاب الطبيعي ...

إننا بعد أحوج ما نكون إلى رجال وشخصيات . وأحوج ما نكون
إلى زعماء وقادة .

(١) أمثلة ذلك كثيرة في التاريخ . وقد تكرر عندما تؤذن الحال بانتقال ملكية من
أسرة إلى أسرة ، أو من فرد إلى فرد . . . الخ فتحدث أزمات ومصادمات حتى يجد هذا
المبدأ تطبيقا يقره العقل . ويطمئن إليه التاريخ .

إن ستارا يسدل على هذا الخبث لا يكفي لتكوين رجولة . وإن من يقع فريسة له لا يمكن أن يأتي بذرية تصلح للبقاء ، أو تصح أن تكون أصولا صالحة لتوريث .

لهذا لم يكتب لقوم يونس ولا لذرية يونس بقاء لتعمير . « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ ؛ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ؛ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » . « فَاسْتَفْتِهِمُ الرَّبُّ بِكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ » .

وإذا كانت الرئاسة قديما وعلى قلة مدارس ، أو أشبه بمدارس فالحياة إذا كانت أحوج ما تكون إلى فصل بين هؤلاء وهؤلاء ، أو تجنب يقوم مقام سياسة التعليم

والاختيار لرئاسة لا يكون إلا عن علم ، والاستعداد لنيل إجازة فيه ، لا يكون إلا بعد ترفع عن مثل هذه الدنيا . وعلم لا يواتى المرء بحكمة وكياسة فأهون به في منصب أو رئاسة ؛ لذلك كان عزيزا عليه سبحانه أن تكون الهبة فيه مشاعا للجميع . « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا . . » « وَلَوْ طَآ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ » .

والحكمة هي الرئاسة أو الاستعداد لها إن احتاجت إلى شرح أو توضيح . ولا يلهم الله إنسانا علما وحكمة إلا إذا ابتعد عن هذا الخبث ، ولم يقع تحت تأثيره في صحبة أو مجلس . لذلك نرى العزة ومقومات الشخصية تستمر وراثته في أبناء القادة والزعماء وسلالة الملوك . أما بنوة العلماء فقد يتعرج بهم الطريق ،

لاختلاط آباءهم بالعامية ، واعترافهم به ولو مداراة لهم ليدفعوا عن أنفسهم تقاليدهم العتيقة الموروثة في هذا الشأن .

لعلنا نفهم بعد هذا مدى اضطراب العقلية في أخريات رسالة نوح ليتناولها لوط بالتصفية والغريبة للأفكار . ولعلنا نفهم أن رسالة لوط كانت رسالة علم وشخصية ، وعليها قام الفصل بين حسن وقبيح ، وبها أُلقيت الحواجز بين شرق وغرب باعتبار موطن الرسالة ؛ لا باعتبارى كمصرى . ولعلنا نفهم شيوع الجمال في أخريات رسائل بنوة إبراهيم ؛ ذلك الذى دعاهم إلى عبادة الأنوثة في « إشتار » إلهة الحب والجمال . ولعلها كانت أخت آشور ؛ أو اتخذت للوصول بها إليه .

هذا وقد كان الهند وما وراء الهند من قديم مهبطا للقبح ، والجهل ، والمعترف بهذا الخبث بعامل الطرد بعد الغريبة عند كل بعث . أو التجنيب الإلهامى تحت نوازع طلب العيش . وما كان هذا الجانب لتقام به حضارة ، أو بعث ، أو ملكية يعترف بها التاريخ إلا ما أخذوه بعد كل طرد أو تجنيب . ولعلمهم كانوا يأخذون معهم جزءاً من الذرارى عن طريق السبي ؛ حتى صلح أن يكون بقايا ، أو أصولاً لهذه البقايا التى كانت منها هذه الشعوب . ولقد يدون التاريخ على خطأ أن ذلك ؛ أو بعضاً منه كان انقساماً للجنسية ؛ أو العقلية بين سامية وآرية . والواقع أنه لا أساس لهذه التسمية على هذا النحو ؛ أو أنها تسمية تحتاج إلى تعديل ؛ إذ الآريون فى الحقيقة هم الطبقة المتعلمة المصاحبة لكل جيل ؛ وهم الذين أخذوا على عاتقهم ترقية اللغة إنشاءً وكتابةً ؛ وهم الذين كان يقع منهم أو فيهم هذا الطرد لهذا الخبث ، وكانوا أشبه بطبقة السكتاب فى كل جيل ؛ وإن تنازلوا فبمعلى المكاتب ؛ لذلك كانت

لغتهم أقوم وأغرز مادة؛ وهذا ما أحدى بالمؤرخ إلى هذا التقسيم . واللفظ في كل لغة من أرى، أو أور . وإن تنوع فمنه قرأ ونظر . . . وقد يسمى به عضو التذكير «أير» .

ولقد كانت تصفياتهم الأخيرة على يد نبيهم «زرادشت» وبعده على يد أنصاره . أما تسمية جزء من الجنسية أو ناحية من العقلية على طول الطريق بسامية فخطأ لا يقره العقل ولا يعترف به قانون التوريت .

إننا جميعا لسنا أبناء نوح ، ولا أبناء سام بن نوح . إن لكل نبي ذرية كما كان ولا يزال لمحمد ذرية ، وإن أقدر ذرية على البقاء من ترث عن الجدود العريقة أكثر صفاتها ، وما كان لها من طباع .

هذا وإذا بُعث نبي بين قوم فهم بين حثالة أخذت الحياة من اعوجاجها، وأشلاء وقف بهم التوريت ؛ ليتحقق فيهم جانب الهدم لرسالته ، وبين جماعة منهم الدهر ؛ ليكونوا أطوع في البقاء ؛ وأصلح لإصلاح الإنسانية . وهؤلاء ذريات لنُبُوءاتٍ سابقة عليه . وفي ظل هذا الإصلاح تنمو ذرية كل نبي جديد .

هذا . . . وإذا كنا ؛ أو مازلنا ساميين فأين ذرية إسحاق وموسى وإبراهيم . . . الخ .

إن نظام الحياة لا يمكن أن يحل عظاما من عظام التاريخ عن تحمل جزء من أعبائها بعد موته في ذرية له ؛ قصداً لتعمير ، أو إتماماً لرسالته في الحياة .

إن الآريين على هذا الضوء ذرية لوط ، وإنهم بعملهم هذا قد أتموا رسالة جدهم في تجنيب ، أو في نشر معرفة وتعليم . وإن التاريخ يخطئ حين يدعى (٤ — البعث)

أنهم كانوا لا يعرفون الكتابة ؛ إذ لم يحتفظ لهم فيها بأثر ، وإن ذلك لا يصح أن يكون علة ؛ إذ القوم كانوا على دين آشور ؛ وإن آشور ما كان يرضى للماضى بتدوين . ولقد كانوا في خدمة مملكته ، في دوريتها الأول والثاني ، وكانوا في ذلك أشبه بالفرس مع العباسيين .

ولقد كانت للآريين ناحية إيجابية مع سياسة التعليم في خلق رئاسات استطاعت أن تركز الحياة في أسر ، وجماعات ، وقبائل حول دجلة والفرات ، وفيما وراء النهرين .

ولقد استطاعت هذه الرئاسات أن تحتفظ لنفسها بناحية تربية أوسياسية في خضوع ، أو قبول لاستشارة على العكس من سياسة فرعون ؛ إذ كانت تمتاز بالكبر ، والإسراف في القول من غير حيطة .

وقد كان الله سبحانه كثيرا ما يؤاخذ فرعون حتى لا يجره هذا الكبر إلى تأله ؛ لضعف الحياة الروحية إذ ذاك ؛ وحتى يجعل للاستشارة جانبا في سياسته .

نشأة السحر وعلم الفلك

لقد كان لكل نبي أو رسول فكرة في الحياة ؛ تتوارثها ذريته ؛ وتنمو معهم ؛ حتى يمتازوا بها ؛ وتمتاز بهم الحياة العقلية ، في عصر ما من عصر التاريخ ، وإننا قد وضعنا ذلك ، أو بعضا منه في رسالة نوح أو لوط . أما إبراهيم فاعلنا نهتدى بعد . . . إلى ربط بين عقليته وشيء من أحداث التاريخ .

إن إبراهيم كان رسول سياسة وجدل ؛ كما كان نبي علم ونظر ؛ ولقد كان كثيرا ما يستلهم السماء ؛ عليه يجد خيرا ؛ أو يصل إلى غيب . ولقد خلف ذرية صلحت بهم السياسة ؛ أو كانوا فيها على وئام إلى حين ؛ وحين اشتد بينهم نزاع على ملكية فسدت تلك القرابة ، واكتفى البعض ؛ أو تلهى عن الملكية بمداومة النظر ، ومزاولة المعرفة عن طريق الاستلham ، مكثفيا بتربية حيوان ، أو رعى ماشية . ولعل هذا البعض وهو الواقع كان بنوة عمات لبنوة إسحاق وإسماعيل .

لقد نال الطرد أول ما نال بقية من أسرة « أور كاجينا »^(١) وكانت قد نالت قسطا من التعليم على يد الآريين . وبعد تتابع الأحداث في السهول والأودية كان لكل أسرة بقية كذلك . وهؤلاء وهؤلاء ما راقبت لهم إقامة

(١) لفظ « أور كاجينا » عند تحليله نجده يتركب من « أور » فالراء فيه معنى البرجولة ، والواو لجماعه الإخوة والمقطع بأكمله لمعنى التعليم الخاص بالذكور . أما الكاف فللمنبو والسكر . والجيم للمجىء والمقطع « نا » ضمير جماعة المتكلمين ، والمعنى الجملى لهذا اللفظ : الأخوة قد حصلوا على إجازة في العلم وجاءوا أو رجعوا إلينا .

إلا في أعالي الجبال ؛ ليقربوا منها إلى السماء ؛ وليتمموا منها معارفهم في علم
الفلك ، أو التنجيم^(١) . وربما اختارها البعض على غير هدى ، إذ لم يجدوا
فيها من وسائل العيش ما يفي بحاجاتهم ، لذلك تعددت منهم الإغارات على
الأودية حيناً بعد حين .

وقد ربّي هؤلاء الخيول وتعلموا القروسية ، ليثأروا لأنفسهم : أو ينالوا
شيئاً من ملك أبيهم إبراهيم ؛ وما زالوا ينحدرون إلى الشمال حتى وصلوا
إلى مقاطعة سميت بهم « أذربيجان »^(٢) أي مؤازرة إذبي جان .

ولقد تخرج في تلك المقاطعة رجال أشداء ؛ لا يقلون عن البدو في شيء .
ولقد أصبحوا العون الثاني لكل نبوة تظهر بالجزيرة ؛ لاشتراك في مبدأ
الوحي والاستلهام ؛ أو مبدأ القناعة ؛ والوقوف في حياة الترف إلى حدٍّ .
ولقد كان قسطهم من السماء يزداد كلما داوموا النظر ؛ أو راعوا مبدأ القناعة ؛
أو ازدادت عنايتهم بتربية خيل وماشية . ولقد استدرجهم ذلك إلى تعليم
الحيوان والطيور شيئاً من الاستجابة عند النداء بشكل يدعو إلى الإعجاب ؛
وبالشكل الذي نراه الآن من سحرة الطريق ، ولعلّ هؤلاء السحرة بقية
منهم ، ولعلّ ما نراه منهم بقية من تعاليمهم . وربما كان القدر الذي عليه الحيوان
من الفهم يرجع إلى تجارب هؤلاء ؛ وانتقل فيه بالوراثة ؛ حتى رأيناه بارزاً في
البقرة والحمام الزاجل .

إن التاريخ يشهد لهم بذلك مع ناقة ثمود ؛ إذ كانت مبصرة ؛ وعلى

(١) التنجيم هو الأخبار بالغيب ، وكان في الأصل ، وقبل أن تعبت به الشياطين
تمهيداً لكل رسالة .

(٢) هذا بصرف النظر عن تحديد النطق بالزاي ، إذ لم تكن قد تنوعت إذ ذاك
في التعبير .

هداية في توصيل الحائل بدون قائد أو مرشد ، وإن لطيمة نعرفها في الأدب إرث عن هذه الناقة . أما مسيامة و حمار مسيامة الذي تحدى به الإسلام فإننا نعلم عنه الشيء الكثير .

إن تسمية بولايات اليمن بالشحر ، ومهرة ، وحمير ، وكذا تسمية العرب لأنفسهم بنحش ، وكلاب ، وأسد ، و ثعلبة ، يرجع إلى هؤلاء . وحين قسمت النجوم إلى مجموعات ؛ وحين سميت بدب أكبر وأصغر ... الخ ، كان كل ذلك أثارة لهم .

ولقد قلنا إن الجان كانوا على استعداد لمدا الإنسانية بشيء من معارفهم ، ولكن متى وإلى أي مدى ... فهنا يمكن الإجابة على هذا السؤال .

إن اتصال الأرض بالسماء ليس مما يكال بالقفران ، إنه في الواقع يحتاج من الطرفين إلى كثير من الجلد ، والصبر ، ومداومة النظر ؛ حتى ينقطع المرء عن أسباب الدنيا . وإنه أيضا تتفاوت فيه أقدار الملائكة ؛ حتى لا يصادف إخلافا من شيطان . فما كان منه من الإنسانية على ضعف استخلصته الجان لأنفسهم ، وما كان قويا بنيت عليه الرسالات .

هذا وإن الساحر إن لم يداوم على جلده وصبره ربما أصيب بنخل أو جنون ، أو استهوته الشياطين . وإن الاستعداد لنزول وحى لا يقل في قوته ، وروعته عن الاستعداد لحماية ملك نزل ساحة القتال . وقد وصف سبحانه كلتا الحالتين بقوله في الأولى : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ^(١) » . وفي الثانية بقوله : « إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » .

(١) أي ازداد ضعفهم الجسدى لتسكهم بالقناعة .

ولقد كان هؤلاء ذرية لماردك، أو ماردش؛ أو هو زعيمهم — واللفظ معناه مارد، أو متمرن راش سهما، أو أصاب شيئا من السماء — وقد نمت معارفهم الفلكية على يديه حتى سموا أضواء الكواكب باسمه ... ماردخ أو « المريح » وقد بقيت هذه التسمية أو هذه الأخرى في كثير من الألفاظ الألمانية كما في « مارك » أو « المريح » أو « الريش » أو « فردريك » .

ولقد برع هؤلاء القوم في التنجيم ، وكانوا يستغلونه في استهواء العامة إلى مبادئهم ، وكان يصاحبهم في كل ذلك جزء من السوماريين ؛ يحملون لهم الدفوف ، وعلى مزاميرهم ينشدون الأناشيد . وما زال فن الموسيقى مع الغناء يَنْمَى وَيُجَزَّزُ في مزامير حتى تولى هذه الفنون عنهم داود وسليمان قال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . . . الخ » . . .

أما الناحية السياسية أو الدينية لهؤلاء القوم فقد اعترف لهم بها آل عمران أو العموريون ؛ وما زال أمرهم يقوى والعموريون في ضعف حتى انتهزوها فرصة ، واستولوا على الأودية والسهول في القرن العشرين قبل الميلاد ؛ وحينئذ عُرِفُوا بقبائل « الكاش شو » أي أخوك في الكوخ ؛ إذ كانوا يقومون على مبدأ المؤاخاة والتأسية بين الجميع . وحين كانوا يستنصرون بالعموريين ضد خثولتهم في آشور كان يسمى التاريخ ذلك انتصارا ساميا على الآريين . على تحريف في التعبير ؛ إذ العموريون هؤلاء لا يمتنون إلى السامية بصفة .

وهم الخلاصة الصالحة للتعمير من ذرية آدم . وكانت تغلب عليهم الوداعة واللين . حتى غلبت الأنوثة على الذرية على العكس من بنوة يعقوب .

ولقد كان هؤلاء العموريون يمدون بنوة يعقوب وغير بنوة يعقوب بزوجات صالحات . وقد كانت هذه المصاهرات تأخذ شكلا أساسيا مع بنوة يعقوب ؛ حتى كان لها أدوار عدة في تكوين بني إسرائيل . أما مع غيرهم فكانت تقف عند نبوة ، أو أصول عريقة في توريث ديني أو عقلي قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

وقد كان الكنعانيون الدور التكويني الأول لبني إسرائيل . وحينما ضعف الجانب السياسي للعموريين وقفوا فيه مع الكنعانيين على أرض فلسطين . فإذا أجذبت بهم هذه الأرض تسلل البعض لوإذا إلى مصر لقطع الأحجار لفرعون كوسيلة من وسائل العيش ، وقد كانوا أقدر من غيرهم على ذلك لضخامة أجسامهم . ولقد تجمع منهم عدد صح أن يطالب به موسى من فرعون بعد ما نالهم منه من سوم وتعذيب .

والكنعانية لغة تسمية على تضاد من القناعة ؛ إذ كانوا لا يعترفون بها كمبدإ القبائل «الكاش شو» . وقد كانوا فوق ذلك يُعَرِّفُون بالجلشع ؛ حتى كانت لهم هذه الأجسام . وكثيرا ما كان يشتد حسد ، أو كراهية بين الإخوة في بنوة كل عاهل من عواهلهم ؛ حتى رأينا ذلك ماثلا في إخوة يوسف .

هذا وحينما كانوا ينحدرون إلى الشمال كان يتكون منهم الشعب الحثي أو الحيتي ؛ ولعله كان يفضل الزواج بالأخت ، أو أخت الأم ؛ حتى غلبت عليه هذه التسمية . وما زال هذا الشعب ينحدر إلى الشمال ؛ حتى وصل إلى آسيا

الصغرى؛ ثم انتقل^(١) منها إلى اليونان، وقد عرف فيه بالآخيين. وربما لم يعترف هؤلاء الآخيون بهذا التآخي إلا بعد أن عركتهم الحوادث، وأخذوا من تجاربها بنصيب. وقد نزل منهم جزء بجزيرة كريت. وحينما كان ينقل حضارة المصريين إلى اليونان كان ينقلها عن تآخ، وأواصر نسب مع الكنعانيين حَقَظَة فرعون وسحرته.

وحينما كانت فروع بني إسرائيل تأخذ نموها على هذا النهج من القرن العشرين إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان يملك الحياة على ضفاف الفرات قبائل «الكاش شو»، ولقد كانت هذه القبائل كثيرا ما تتخالف مع الحثيين في مبدأ قناعة، وزهد ضد فرعون، أو ضد الكنعانيين سكان فلسطين؛ حتى إذا ظهر هرون ليتم رسالة أخيه كان له من الحثيين وحلفائهم خير عون ضد الكنعانية في مصر أو في فلسطين.

وما زال بنو إسرائيل منذ نشأتهم يحتضنون السحر عن هذه القبائل في كل أرض يحلون بها حتى حمل لواءه كثير من علمائهم^(٢)

(١) انتقال شعب من بقعة إلى بقعة : أو فناؤه لتخلفه ذرية صالحة منه لا يكون انتقالا عاما، أو فناء شاملا؛ بل يكون ذلك في بعض الأسر، وبمرور الزمن يفنى ما يكتنفها من قرامات ضعيفة.

(٢) لهذا الموضوع بقية ستجدها في الموضوع التالي.

تعديل في مواقف السياسة والتاريخ

- ١ -

لقد كنا نظن أن الفراعنة شيء آخر في التاريخ ؛ كما كنا نظن أن الحياة الفكرية في جزيرة العرب كانت بعيدة عن أختها في وادي النيل ؛ حتى فهمنا أن قدامى المصريين كانوا جنسا مستقلا ؛ أو لا يمت بصلة ما . . . في لغة أو تفكير عن الحياة في جانبها الشرقى ؛ أو الحياة في عروبتها الخالدة في رسم لغوى أو تقليد سياسى .

ولقد استنكرنا هؤلاء الفراعنة كما استنكرهم القرآن . واستبعدناهم كما يُستبعد كفر في عقيدة أو دين . وإن إنكارنا لهم كان يجب أن يقف عند استنكار لسياسة غاشمة ، أو رئاسة في كبر وغطرسة .

إن فراعنة يتنكر لهم الدين ذرية لإسحاق أو بقية من ذراريه . وإن ظلما أو طغيانا وُصِفُوا به كان قد حذر الله سبحانه إبراهيم منه حينما رغب أن تكون الإمامة إرثا في ذريته على طول الطريق قال تعالى : « وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ^(١) فَأَتَمَّهُنَّ . قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » .

(١) لقد كان هذا الابتلاء هو ترك ذرية له في صحراء العرب لتعيش مع بقية من ذرية نوح آثرت سكنى القفار . وكان الله سبحانه يقصد من ذلك أن يكون له من ذريته إمامة في زهد وقناعة كما سيكون له منهم إمامة في بناء خلد على ضفاف الأنهار وحتى يكون ذلك فيما بعد مبدءا تأسيسية لمن يعانون شيئا من شظف العيش .

إن إبراهيم عليه السلام قد أدى ما عليه حين ابتلاه ربه بكلمات بترك ذرية له في القفار ليتأسى بهم الجميع إذا أجدبت الحياة على ضفاف الأودية ، وشواطئ الأنهار ؛ وإنه كثيرا ما كان يستجدي عطفه سبحانه لذريته من بعده .
 لتبقى فيهم هذه الإمامة . وكثيرا ما كان ينادى ربه « رَبَّنَا إِنِّي أَشْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ . فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي ^(١) إِلَيْهِمْ . وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » ، على ينال شيئا من الموافقة أو التوفيق .

لقد كنا نودُّ أن يستمر بيت إبراهيم في وئام ؛ كما كنا نودُّ أن يراعى جانب الرئاسة فيه جانب ضعف ، أو أقلية في الإنسانية بُني على جهل ، أو فقر ؛ حتى يدرك رشده ؛ أو ينال شيئا من نعيم الحياة .

إن إسحاق قد أدى ما عليه في تأسيس امبراطورية أبيه ، وترك ذرية قوية فيهم شخصيته فصلحو الرئاسة إلى حين . وحين خرجوا على مبدأ أبيهم إبراهيم دَبَّتْ بينهم الفرقة ، والانقسامات في أسرة أو ملكية .

وإننا إذا رجعنا إلى إسحاق ، أو عقلية إسحاق لنعرف لِمَ كان هذا الإخلاف في التوريث نجده كان قد جاء من أمومة على عقم . وإن ناحيته الفكرية كانت ناحية اندفاعية في تأسيس الامبراطورية تحت إمرة أبيه ، وتلك ما يتطبع بها الجنود ، ورؤساء الفرق تحت اللواء ؛ وهي في الواقع لا تؤدي في الذرية إلى استقلال في الرأي ، كما تؤدي إلى شيء من الصلابة فيه عند الرؤوس .

== أما التعبير بكلمات فيمكن أن نمثله به على ضالة لغة الوحي ؛ وأنها ما كانت إلا على مقدار ما وصلوا إليه من فهم وإدراك لمعنى الحياة .
 (١) أي نحبهم وترغب في أن تتأسى بهم .

هذا إلى أن صلة بين عقلية عامة وعقلية رئيس كانت على شقة . وإن إصابة
المفصل في سياسة ما نجح فيه إلا الأنبياء ، وجزء من عطاء التاريخ .
إن عقلية لبنوة إسحاق لم تكن أهلا ، أو على استعداد لأن تمتزج في
مصاهرات مع عقلية الساميين على ضفاف النيل . هذه لرئاسة . وتلك لإنتاج
في نحت ، أو ملاحاة ، أو بناء سفن . وإنهم ما كان يعوزهم رئيس من بينهم .
أو على شاكلة من أمرهم . ولو تنازل هؤلاء الرؤساء عن الاعتزاز بشخصيتهم
ليعيشوا مع الساميين على هذه الحرف لامتزجوا بهم . ووقعت بينهما مصاهرات ؛
تعين على توريث ، ولكنهم كانوا على خلف . وما أنقذ الموقف إلا يوسف .
حين استأثرها لنفسه .

إن عقلية إسحاق على ضفاف وادي النيل ربما كانت ادخارا للشخصية
إلى حين ؛ وحينما تضعف الرئاسة في بعض الأسر . وربما كانت استكمالاً
للعقلية من هذه الناحية ؛ والوصول بها إلى شيء من اللين من ناحية أخرى ،
بعد الاعتراف بالهزيمة ؛ لتبتم المصاهرات الجديدة على شيء من المشاكلة في
الأخلاق . وإن ما حدث من تشاغب حول الرئاسة بين الأسر ، أو الاندفاع
في تيار المدنية ، أو الانسياق في طريق الفنون فقط دون العلوم النظرية ، أو
المجردة يرجع إلى ما كان يجد من مصاهرات على أساس غير صالح لتوريث ،
كما يرجع إلى تلك الناحية الفكرية ، أو العقلية الماثورة عن إسحاق .

لقد انتظر الساميون من هؤلاء الأرباب إصلاحاً لزراعة ، أو توفيراً لمحصول
يعيشون عليه فما أجدى هذا الانتظار . وكلما حضرت قافلة من بقية نوح
المتخلفة حول الكعبة مع ذرية إسماعيل إلى مصر لتبادل تجارى عادت بما
لا يقضى الرغبة ، أو يقيم الأود ؛ حتى نال كل فريق من فريق في تهكم أو ازدراء .

فهؤلاء وصموا بالرعاة ، وأولئك سموا أنصاف آلهة . وقد بلغ الحرج بالجميع إلى الدرجة التي تستأهل نبوة ، أو رسالة في علم الزراعة وفلاحة البساتين . .
هذا وفي القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد كانت رسالة يوسف . وبعث يوسف : ويخطئ قصص الدين أو التاريخ حين يستأخرها إلى عهد الهكسوس ؛ أو يستقدمها ليكون يوسف سبطا أو ابنا مباشرا ليعقوب ، وإنه لو كان كذلك لاضمت رسالته إلى نبوة مباشرة لنبوّة إبراهيم في نسج الأقاويص .

إن بُنُوّة لِنُبُوّة مباشرة لإبراهيم قد انتهت بالأسباط فقط ليعقوب وعمومة يعقوب قال تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ . وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا . وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » .

إن للأنبياء لشأنا آخر غير شأن قصه القرآن لِأَبُوّة يوسف في قصة يوسف . وإنهم ما كانوا ؛ ولن يكونوا إلا في منعة من قومهم وبنيتهم . وإن قرابه لنبي لا يعهدا العقل إلا على أتم ما تكون . وإذا كان هذا أيضا شأن يعقوب ؛ فهل يحيز العقل أن يمتن يعقوب من بنيه ، ويرمى بضلال قديم . قال تعالى : « وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون . قَالُوا تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » . ولو كان أبوهم هذا يُقصد به يعقوب لَفُضِّلَ له لفظ يعقوب .

إن لفظ يعقوب في قوله تعالى : « إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا » ما يقصد به ، أو من حوله إلا وصية قديمة ليعقوب ، متوارثة في بنيته ؛ تلك هي ألا يدخلوا من باب واحد لكثرة عددهم ؛ أو خوفا عليهم من حسد ، وقد قضاهم له عاهل إخوة يوسف ، وأبو يوسف وإخوة يوسف .

إن يوسف بعد . . . هو الذي أنقذ الساميين من أرباب متفرقين ، وهو

الذى وضع نظام الأسرات المعروف لقدامى المصريين . وقد كان يتخذ أنصاره من هؤلاء الرعاة لما لهم من سابقة معه أو عليه قال تعالى : « وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ . قَالَ : يَا بَشْرَى ؛ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً » . ولقد أمكن للحياة أن تتمزج في مصاهرات بين هؤلاء وهؤلاء لتكوين تلك الأسر لقربا في العقلية ؛ أو عوداً بها إلى الأصل . وقد شاركهم في ذلك يوسف والأرباب ؛ لأنهم جميعاً ما زالوا يحتفظون بأنسابهم ويعتزون بها لإبراهيم في تسجيل حوادث التاريخ .

إن تاريخاً يتبدى به تلك الأسر هو تاريخ لإبراهيم . ولقد كان بعض هذه الأسريدين لآشور فلا يدون للتاريخ ، والآخر يعترف بالماضى في شكل عودة روح ؛ فيدون له مع الأصل بتاريخ الحادث الجديد . وحينما كانت تتطاحن تلك الأسر من أجل السياسة أو الدين كانت تضيع تلك التواريخ ، ولا يحتفظ للحدوث إلا بالقديم . وهذا ما جعل المؤرخ يقول : بأنه كان هناك عصور مظلمة في التاريخ .

لقد أنجب يوسف من مصاهراته مع ملك الساميين ابناً واحداً هو « مينا » ؛ ومن اسمه ؛ ومن الأمومة السامية اشتق لفظ « أمون » اسماً للروح أو رمزا لها . وحين أدى رسالة أبيه ؛ أو أتمها ؛ وحين قضى نحبهُ لم يكن له من الذرية من يصلح للكية ؛ فامتلكها هؤلاء الرعاة . ومن الحالة الملبسة اشتقت لهم أسماءهم : « خوفو ، وخنفرع ، ومنقرع » أى خافوهم ، أو خف الراعى ، ومنقرع الراعى في الأشغال الشاقة ، وقطع الحجارة . وقد شاركهم في ذلك بعض الكنعانيين ؛ ومنهم كان زعيم العمال « بتاخ » أى رئيس البطاح ، والمهيمن على عمليات القطع بالوادي ، والموكل إليه تعذيب الأشقياء في بطن الصبحارى .

إن ملكية مصر كانت في يد ملك يسمى « دِنَّ » . ولعده عرفت الخمر ، ومن اسمه كانت « دِنَانُ » لأوعية الخمر ، وإن ذلك قد عثر عليه منقوشاً في صخور مقبرة تسمى مقبرة « حَمَّاك » وإن حماكا هذا هو يوسف . إن القرآن ليعتز بملكية ذلك الملك ؛ كما يعتز بوزيره العزيز ؛ وإن القوم كانوا يعتزون كذلك بيوسف ؛ حتى حفظوا له سكاكين النسوة ، وأنبيهن بتلك المقبرة ، وإن التاريخ ما زال يجهل أنها ليوسف ، وإن موضع ذلك من التاريخ هو منتصف القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد . وتاريخ غير هذا لا يقره العقل ، أو يضل فيه عند المقارنة بين أحداثه .

تلك هى الحالة السياسية التى كان عليها هؤلاء ، وذلك موقعها من التاريخ . أما سوء الناحية الاجتماعية ، أو أحوال الاجتماع فيرجع إلى ضعف العقلية فى محاولتها تحسين الزراعة ، وإجادة المحاصيل ؛ لتفى بحاجة الجميع ؛ وإن من الطبيعى أن تكون كذلك ؛ إذ هى العصر الانتقالى من صيد إلى زراعة . وإن القوم لم يكونوا قد عرفوا التوفيق بين الحالات الجوية ومواعيد الاستنبات أو الحصد ؛ وربما كان زرع الغلال قاصراً على بعض المناطق الدفئة . وربما كانت رؤيا ملك الساميين التى فسرها يوسف تنبؤاً بما ستكون عليه الحالة عند استنهاض الهموم ومحاولة الزراعة فى مساحات أوسع من بقاء سنبلات خضر وأخر يابسات . وربما وهو الواقع أن تلك البقرات العجاف هى التى سينهكها التعب فى الحرث ؛ وأنها يجب أن تستجم لتأكل غذاء لبقرات سمان تُؤخذ بدلها للحرث . وعلى كل فذلك تنظيم لحركة العمل الذى جاء به يوسف ؛ وإنه ما زال يشهد له أثران خالدان بالصعيد ، هما قلعَتَا سِمْنَة وَخَمَّة ، وَخَمَّة من خَمِّ الأكل والتهامه بشره مع صفيح من الأنف ، وعندها كان مركز أخميم .

إن يوسف وخلفاء يوسف قد وضعوا علم الفلاحة على أساس ؛ وإن الأمر لم يقتصر على هذا ، أو على ضفاف النيل ؛ بل تعداه إلى شواطئ دجلة والفرات . ولقد توصلوا له فيما بعد إلى التحكم في مصارف المياه بإقامة السدود . وقد طوّقوا بحيرة موريس لتمد فرعا من فروع النيل لا يزال يُعرف للآن باسم يوسف . ولقد تحققت رؤيا صاحبيه في السجن ، وأخرجت الأرض من الغلال ما فضل^(١) أن يكون غذاء لطير ، ومن العنب ما صح أن يكون عصيراً لخمر ، وذلك معنى قوله تعالى : « وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ . قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا . وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ . نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ؛ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُ كُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا . وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ . قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » . أما الصلب ، أو أكل الطير من الرأس فهو كناية عن عمل الفلاح . وأما تفاوت بينه وبين سقاية الخمر فترتيب لشأن وظائف وموظفين ، أو تنظيم للثروة بين دخل وخراج .

ولقد قامت بجانب هذه التجارب الزراعية تجارب أخرى في الإنشاء والتعمير . وما زالت تلك التجارب في طريق الإجداد والتحسين ؛ حتى وصل المصريون بها إلى نهضة لا مثيل لها في الزراعة والفنون من بناء ، وتصوير ، ورسم ، وتلوين . . . الخ .

هذا وإن تقارباً بين زراعة وتجارة في سفن ، أو في قوافل مما ساعد على

(١) عند بعث يوسف ، وفي تلك الآونة يتحقق قوله تعالى : « وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام . سواء للسائلين » وأربعة أيام : أربعة آلاف سنة قبل بعث يوسف .

تماسك الحياة الاقتصادية في أكبر مساحة ، وبنائها على مصاهرات بين الجميع من غرب وفينيقيين ومصريين ... الخ . وما زالت تنمو في الذرية والأعقاب ؛ حتى عرف القوم كيف تؤسس الممالك ، وكيف تقام المدن ، وكيف تدعم السياسة المالية لكل إقطاعية أو مملكة ؛ ولكن سرعان ما انقطعت تلك المصاهرات ، وانقطعت بانقطاعها تلك الإمدادات عن العرب ، وعادت الحال إلى أسوء مما كانت عليه .

ولقد كان الظلم أكثر مما يقع على الكنعانيين في مصر أو في فلسطين . وربما كان ذلك لعدم وجود أواصر قرابة بينهم وبين المصريين ؛ إذ كانوا ساميين ؛ أو لعدم الاعتراف بها لهم مع بنوة يوسف ؛ إذ كانوا قد أساءوا إليه من قبل ، وربما كان لاختلاف في العقيدة وعدم الاعتراف بها لفرعون .

ولقد كان يسيطر على الحياة في جانبها الشرقي قبائل « الكاش شو » ، ولقد كانوا على مبدأ أبيهم إبراهيم في حياة الخشونة والبساطة في العيس رعاية ، أو حلقة مع بنوة إسماعيل ؛ كما كانوا يؤثرون مداومة النظر في سحر وعلوم عقلية على الاشتغال بنجته أو تصوير أو زخرفة وبناء ، وكانوا في كل ذلك على العكس من المصريين ؛ لذلك كان ينتظر بين حين وآخر أن يقع بين الفريقين شقاق أو نزاع من أجل هذه المبادئ ، أو ثاراً من بني إسرائيل أو لبني إسرائيل .

هذا وقد أمكن لتلك المصاهرات التي كانت من بنوة نوح مع ذرية مباشرة لإسماعيل أن توجد لنوح ، ومن ذريته أنبياء هم : هود ، وصالح . وشعيب . ولقد ذكر هؤلاء أو بعضهم في نسج قصص القرآن بعد نوح وقبل إبراهيم فقال تعالى : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ . وَعَادٍ . وَثَمُودَ ،

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ... الخ . وفي أخرى يقول سبحانه على لسان رسوله شبيب : « وَيَا قَوْمِ : لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي . أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ . أَوْ قَوْمَ هُودٍ . أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » . فوقع في ظن البعض أنهم يتأخرون أيضا في الزمن على إبراهيم ، ونسج لذلك أن عربا بائدة ، أو قوم هود ، أو قوم صالح كانوا قبل إسماعيل . والواقع غير ذلك ؛ وإنهم لم يذكروا على هذا الترتيب إلا من حيث القرابة لنوح . وإن مصاهرات أو تعارفا لإسماعيل مع « جُرَّهُمْ » اليمينية التي يحكى عنها التاريخ لم تكن لإسماعيل ، أو لبنوة مباشرة لإسماعيل ؛ بل كانت عند العدنانيين من ذريته ، وفي أخريات تلك الآونة من التاريخ (أى في القرن الرابع عشر قبل الميلاد) .

إن الله سبحانه قد وضع لنا نبوة متسلسلة في ذرية ثلاثة من الأنبياء . وهم آدم ونوح وإبراهيم . أما نبوة بنوة إبراهيم فما غاب عنها قلم . أو ضل فيها فكر وأما نبوة من بُنوة آدم فقد تركزت في آل عمران . وأما نوح فله هؤلاء الثلاثة . أو الأربعة مع لوط .

هؤلاء الثلاثة الأنبياء كانوا على مبادئ « الكاش شو » ، أو مناصرين لهم ؛ ليأخذوا بالتأثر لإخوانهم الذين كانوا يطردون من مصر إلى القفار بين حين وحين ؛ أو ليطأوا بتلك المدنية ؛ حتى يُجِدَّ العقل في مزاولة الفلسفة والعلوم ؛ وحتى يكون هناك توازن في العقلية بين علوم وفنون .

إن أول ثار ، أو أول تبطىء كان على يد « الهكسوس^(١) » . وإن أول

(١) لفظ هكسوس لغة من « هك » أى روح غائبة . قد نمت ، أو كثر لإدلالها عن غيب ، « سوس » من الوسوسة ، وكانت في الأصل على معنى الوشوشة في العامة .
(٥ - بعث)

من حمل لواء تلك السياسة هو « هود » بعد أن أصلح من شأن قومه ، وانتخبت له الحياة رجالاً أشداء هم هؤلاء الهكسوس .

ولقد كان هود وأعوانه يرسلون الإنذارات القوية ، وعبارات التهديد في شأن هذه الفنون لا من حيث أنها بناء وتعمير ؛ بل من حيث أنها بنيت على أساس خاطئ في الدين . قال تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ^(١) . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » .

ولقد كان هؤلاء على حق في توجيه هذه الإنذارات ؛ إذ القوم لم يصلوا بعد إلى شيء من السعادة الخلقية . أو الدينية يسعأهلون به هذا النعيم . وما كان لم يكن ظلماً ؛ إذا رأينا بجانبهم أقواماً يشقون ؛ لبذر شيء من القناعة في النفوس ؛ وشيء من اللين في الأخلاق .

ولقد كان أعوان هود ، وخلفاؤه بدءاً على مبدئه . وما لبثوا أن تغيرت نفوسهم فحاكوا المصريين في تقاليدهم الدينية ؛ وجاروهم في حركة البناء والتعمير وعادت الحال إلى ما كانت عليه ؛ واحتاج الأمر إلى بعث جديد . فجاءهم صالح بناقته ؛ وبتهديدات من أنفسهم لأنفسهم من قبيل تهديدات هود ؛ إذ يقول : « أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ^(٢) » ، وكأنه يريد بهم العودة إلى بطن الصحراء أو لا يجاروا هؤلاء المسرفين في تقليد أو بناء .

(١) أي تعادون إلى الخلد بعد الموت على أساس عودة الروح إلى جسد الدنيا بعد التحنيط

(٢) المسرفون الفراعنة المغالون في أفكارهم .

هذا ولقد أحدثت تلك التهديدات فيما بعد رتقاً في الأخلاق ؛ إذ فهمها الناس سياسة ، ومبادئ تتبع ؛ فضعفت روح العمل في النفوس ؛ وساء فهم القوم لمعنى الحقوق ؛ فطففوا السكيل ، وأخسروا الميزان . وجاء شعيب ؛ ليوازن بين أخلاق وفنون ، أو بين حقوق وواجبات .

حينئذ ؛ وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد كانت مبادئ « الكاش شو » قد ضعفت في النفوس . فأرادوا البناء والتعمير ؛ فبنى فريق جنة اليمين . أو اليمين ^(١) وهم سبأ ^(٢) . وبذر الثاني للكلدان . أى الخلدان في الشمال . بعد أن صاهروا الفينيقيين ؛ ليأخذوا عنهم شيئاً من فنون يوسف . أو نوح . وهذه وتلك قد عبر عنهما سبحانه بقوله : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ . جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ . كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ؛ وَاشْكُرُوا لَهُ . بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ . وَرَبُّ غَفُورٌ . فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ . وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ . جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِنِ

(١) وبعد قليل أصيبت بسيل العرم . وكانت منهم جرهم البينة التي صاحبت العدنانية من بنوة إسماعيل .

(٢) لفظ سبأ من سباق الخيل ، وقد بقى على أصله كما في العامية . وقد كانوا يتسابقون بها من أجل المعرفة وتحقيق مشاهد الطبيعة ، وفيهم نشأ لفظ « فيلسوف » من في — ظل — وساف يسوف أى يشم روث الحيوان ؛ ليقدر به الزمن والمسافة (على وزن مفعلة . من ساف يسوف) واللام للتعليل . ومنها المثل المأثور في معنى الفلاسفة : « جبت الأرض متفلسفاً » . وأما لفظ « ماروت » فمن الروث . وهو التحوير الأخير للفظ ماردك . وقد كان نصيبهم من المعرفة الغيبية يزداد كلما بالغوا في استنشاق رائحته ، ولعل ذلك كان بناء للروح وتسكوينها للصورة الكهربية من الغازات المعدنية المنبعثة من هذه الروائح . وهي الأعراف . وقد هدد بها القرآنيون يوم القيامة كل مخالف ؛ ولو في تناول المعرفة على غير أساس في سورة من سوره قال تعالى : « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . وإن ذلك لن يكون إلا بناء للروح على نمط جديد وعلى معرفة تتجلى بها الساعة ، كما أنه عقاب لتفريط النفس في تناول المعرفة عن طريق الاستقلال في الرأي أو الاستنتاج والمجهود الشخصي .

أَكُلْ خَمْطٍ ، وَأَثْلٍ ، وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ؛
وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكَفُورُ » .

ولقد ضاع أمل القوم في تكوين مزارع وإقامة بساتين . ولعل ذلك كان
لأن عقليتهم كانت أقرب إلى علوم منها إلى زراعة أو فلاحه بساتين . وعلى غير
جدوى كانت تُلقى أشعار الحماسة ، ويؤلف القصص ؛ لإعادة شيء من مجد الآباء ؛
إذ كانت آشور قد ظهرت ، وقطعت الطريق بين الفريقين ؛ حيث وصلت إلى
شواطئ البحر الأبيض . وتلك ما أرادها الله بقوله : « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى ^(١) الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ^(٢) ظَاهِرَةً . وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ . سِيرُوا
فِيهَا لِيَالِي ، وَأَيَّامًا آمِنِينَ . فَقَالُوا : رَبَّنَا : بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ^(٣) ، وَظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ . فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ . . . » .

وحينما ضعفت نفوسهم عن مزاوله السحراً مكن لإبليس أن يصدق عليهم
ظنه « فَاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . وهؤلاء المؤمنون هم النواة التي
نشأ عنها الكلدان فيما بعد ؛ كأمة ، بعد أن كانت قري ، وحينئذ وجد للشيطان
أنصار كما للبحان أنصار . ولعل شيطاناً حين رأى نجاح سياسة تلقين أراد أن
يكون له فيها نصيب ؛ فانقطعت أو أخذت تنقطع بالجميع أسباب من السماء .
ولقد سارت الحقيقة مع هؤلاء وهؤلاء بين صدق وإخلاف ؛ حتى وصمت العقلية
بالخيرة والتردد .

وبعد فلعل هناك تصحيحاً آخر لتجاهل التاريخ ؛ ولعله كان لدولة على

(١) أى الكلدان عند نشأتهم الأولى ؛ وقبل أن يكونوا أمة .

(٢) هى قري آشور .

(٣) أى زد لنا قدراً في المسافة نصل به إلى معرفة .

خفاف الوادى لبني إسرائيل ؛ ولعلها كانت ثأراً للإسرائيلية من فرعون ؛
على أنها لم تعمّر بالوادى أكثر من مائة عام . وإنا لانستطيع أن نقيم لها
الأدلة من ثنايا الآثار ؛ أو من ثنايا التاريخ إلا إذا استطعنا أن نهدم شهرة خاطئة
للأسرة من أسره .

إن التاريخ ليشهد أن التدوين في عصر الرامسة قد عبثت به الأيدي
وتناولاته على خيانة بمحو أو تحريف ؛ وإنه ليقر بشهرة تكاد تكون كاذبة
لفرعون واحد هو « توت عنخ آمون » . وإن العقل ليضل حينما يحاول أن
يستنتج . . . لم كانت له وحده هذه الشهرة . ومن أى طريق اكتسبت ،
أو استحوذت مقبرته على هذه الآثار .

إننا في الواقع إذا سردنا هذه الآثار وجدناها أشلاء لجملة عُصْرٍ ، أو عدد
من السنين ؛ وإنها في الواقع مما لم تجر العادة به أن يوضع في قبر ؛ لتخلد به
جثة ، أو تسترشد به روح ؛ وإنها يغلب عليها أن تكون أثاثاً لمنزل ، أو متاع
لبيت ؛ وإنه في الواقع ربما استحوذ عليها ؛ ليكتسب بها ملكية ؛ أو ينال بها
شهرة ، أو أنه يريد أن يتخطى بها التاريخ ، أو يرجع معه ؛ ليضع نفسه بجانب
إخناتون ؛ حتى يستطيع أن يمحو هذه الفترة التي كانت لبني إسرائيل .

إن القرآن لَيَصْدُقُ حين يُثبت وجوداً . أو رغبة لإقامة هذه الدولة ؛
حيث يقول سبحانه : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ؛ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ
بُيُوتًا . وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

إن وحيه سبحانه أمر يجب أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ ؛ وإنه بعد ذلك
وفي هذه الآية أمر لموسى وأخيه ؛ ليقيا به أركان هذه الدولة ، وقد كان موضع
رسالة الأخوين ؛ وإننا سنحاول أن نستنتج . . كيف استطاع لموسى وأخيه

أن يقيم أركان هذه الدولة ؛ ويثبتها على ضفاف النيل .
إن موسى حين استقبل الأمر نادى ربه : « رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ ؛ عَنْ سَبِيلِكَ . رَبَّنَا
اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ؛ فَلَا يُؤْمِنُوا ؛ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا . فَاسْتَقِيمَا ، وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ » .

لقد كان أول حدث لزعة هذا البناء غرق فرعون ، ونجاته بيدنه ؛
ليكون لمن خلفه آية ؛ وإن ذلك الحادث ؛ كآية أثرت في نفوس المصريين
لم يحلله لنا التاريخ .

إن إخناتون حين أدركه الغرق : « قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . وإنه من قبل هو الذي
تربى موسى في حضنته ؛ وإن التاريخ يحفظ له كثيرا من الأناشيد الدينية
التي لا تفرق عن الوحدةانية في شيء ؛ وإنه في الواقع قد أخذ الكثير منها عن
موسى قبل هذا الحادث ؛ وإنه قد هم بالإيمان أكثر من مرة ؛ فمنعه قومه ،
أو منعه قرابته ؛ خوفا على ملكية ؛ إذ كانت تنازعهم فيها أسرة الرمامسة .
هذا هو شأن فرعون مع هذه الآية . ولقد كان على غير مرأى من
موسى وهرون . وإن موسى وهرون ما وصلها شيء عن هذا الحادث ؛ أو كيف
أثر في نفوس القوم .

إن العقل ليحكم مع القرآن أن هذا الحادث كان آية ؛ لها نتيجة ، ولها
أثر في نفوس القوم . ولقد آمن بها الكثير مع زوج إخناتون . وحين حاول

أحد الرمامسة أن يتزوج منها ؛ ليثبت الملكية في أسرته بهذا الزواج ؛ وحين أرادها على مبدأ البناء ؛ لتخالف به مبدأ قبائل الكاش شو . قَالَتْ : « رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ . وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » . وقد آثرت على كل ذلك بيتاً من طين في جنوب الصعيد أوفى « سوهاج ^(١) » ؛ حيث نشأت أسرة موسى وهرون .

إن هذا في الواقع ينبؤنا بما كان عليه المصريون من خلاف بعد هذا الحادث . وإن امتلاك أحد القواد « حورحوب » لزمام الأمور بعد إخناتون ما كان إلا انتظاراً ؛ ليتفق القوم على الميراث . وإن ملكية لقراعنة ما . . . بينه وبين إخناتون من نسج الخيال ؛ على أنها فترة وجيزة ، والدس فيها ظاهر . هذا . . . وإن نبذة تاريخية . لتوت عنخ قد امتلأت بالكهانة ، وألفاظ الكهانة ؛ مما لم يُعرف إلا بعد إخناتون بأكثر من مائة عام .

ولقد خرج موسى من مصر على عودة . أو رغبة في عودة . وقد انقسمت العقلية بعد خروجه بين مؤمن وكافر . ولو كان له من نفسية قومه وأعدائه ما للقواد من جنودهم ؛ من نصرة صادقة ؛ وبثٍّ للسرايا ؛ واستطلاعٍ للأحوال لتشجيع على العودة ؛ وكان له الأمر . ولكنهم كانوا أحوج ما يكونون إلى شيء من النظم الحربية ، وشيء من الصبر والجلد ؛ وحين حاول أن ييثها في نفوسهم كانوا منه على خلاف . وضربت عليهم الذلة ، والمسكنة لا شيء سوى تنشئتهم على الصبر ، والجلد ، وقوة الاحتمال ؛ إذ كانوا مترفين . واستنزاهم إلى ما يكون عليه الجندي من الطاعة ، وصدق المعونة لرئيسه .

(١) سوهاج من «سو» أى انظر ، وقد بقيت في العامية كذلك . ولكن بالثين .
وهاج بهيج . من هيجان أدوات السحرة .

ولقد حاول موسى أن يعود بهم إلى مصر؛ عن طريق فلسطين؛ ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى شيء من الجلد؛ فضلوا الطريق. أوقالوا: « اذْهَبْ أَنْتَ . وَرَبُّكَ . فَقَاتِلَا . إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » :

ولقد قام هرون من بعد موسى، وكان له من الحثيين خير نصير؛ إذ كانوا على كرهٍ لإخوانهم في فلسطين. ومن جهة أخرى كانوا يعرفون إخناتون، ويرتبطون بأسرته بنسب أو مبداء، وغرف في زواج « إخناتون = خيتيين » ولقد كانت على مصر إذ ذاك رمسيس الثاني؛ وعبثا حاول استرجاع أملاكه بآسيا؛ إذ كان قد اقتسمها هرون مع الحثيين؛ وعاد شبه منهزم؛ وتنازل عما كان عليه من غطرسة. ودخل في الطاعة لهذا الحلف الآسيوي. وزوجه ملك الحثيين من ابنته؛ ليؤول عرش مصر لبنوة منه. وقد كان له منها منفتاح هذا وإنه لم يوافق القوم على مبدأ البساطة في العيش؛ إذ كان لقبائل الكاش شو بقية. وكان الحثيون معهم على هذا المبدأ. ولم تكن آشور قد وصلت إلى سواحل فلسطين. ولقد كان على حق. وإلى حدٍ ما...^(١) حين نادى وزيره « هامان »؛ لينبئ له صرحا علَّه يطلع إلى إله موسى؛ ذلك الذي يأمرهم بالخشونة، وهذا التشف الممقوت. ولقد أمكنته الحجة؛ ليعارض بها هذا الحلف؛ حين اعترضوا عليه في بناء صرحه الخالد « معبد الرمسيوم » أي « للرمس يوم حساب ».

ولقد ساعد الرعية على تجديد مبانيهم، وإعادتها إلى أحسن مما كانت

(١) أما أسلوب القرآن في ذلك فهو أسلوب قصصى؛ وللعبارة فقط. وهو مبني على كثير من الإيجاز. أما الفراعنة الذين كانوا يتولون الردود على موسى فلم يكن منهم إخناتون؛ لاذ كانوا كثيرين؛ وكانوا بطلعون إلى الحكم من بعده؛ وكان إخناتون كثيرا ما يكون العوبة في أيديهم.

عليه ، وقامت حركة إنشائية لعدة قري ، منها قرية . أو أكثر لبني إسرائيل . وقد وقفت حركة الكشف عند واحدة فقط . هي ما عُرِفَتْ بِتِلِّ الْيَهُودِيَّةِ .

و حين مات رمسيس الثانى قام ابنه منفتح بإيعاذ من قرابته الأسيوية ليمحو ما دونه أبوه من الآراء التى عارض بها هذا الحلف ؛ والتى لم تدخل لهم فى مذهب . أما ما دُوِّنَ له من انتصارات فكان من نسج خيال توت عنخ آمون ؛ ليعنّى بها على تلك الدولة التى استعدت ؛ لتقف على قدمين بعد منفتح .

قال تعالى : « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ — استجابة لدعوتهم على فرعون — وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ . فَمَا اخْتَلَفُوا ؛ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ . إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

هذا ما قاله الله فى شأن هذه الدولة ، وإنه لقول لا يتنبأ لبني إسرائيل باستقرار . ولقد غلبت عليهم شهوة المال ؛ فوقعوا بها فى اختلاف على الرئاسة .

فريق يؤثر الآخرة . وثان يريد بها بدخاً ونعياً ، وثالث يبغي التوسط بين الأمرين . وهذا . أو ذاك تمثله قصة قارون . قال تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ؛ فَبَغَى عَلَيْهِمْ . وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ؛ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ؛ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا . وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » .

و حين لم تنجح فيه هذه العظة ؛ و حين خرج على قومه فى زينته . « قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ؛ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

حينئذٍ كانت قد حدثت انقلابات عامة في الأفكار حول هذه المبادئ .
 وحينئذٍ انتهرت تلك الفرصة عمومة لرئيس الأول في طيبة ؛ واتفقت مع
 بني إسرائيل المترفين ، وترَضَّتهم بالمال ؛ لإعادة الملكية فيهم ؛ على أن يكتفي
 بنو إسرائيل بالكهانة . أما توت عنخ آمون فقد تزوج من أعقاب أعقاب
 إخناتون ؛ لِيُثَبَّتَ الملكية لنفسه بهذا الزواج . وقام ؛ ليطارد الذين أوتوا العلم من
 بني إسرائيل إلى القدس . ويايغاذ منه نزل الأرض المقدسة قوم من الحثيين
 سكان كريت ، وبرتاسة جالوت ؛ ليواصلوا سلسلة الانهزامات بيني إسرائيل .
 وحين جدَّ الجدُّ « قالوا : لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا . نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ،
 قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا . قالوا : وَمَا لَنَا أَلَّا
 نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
 الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . وحين بعث لهم الله طالوت ملكا .
 وحين تلاكأوا في اختياره توالت عليهم سلسلة الانهزامات ، ولم ينقذهم إلا
 داود ؛ حين أمكنه أن يوفق برسالته بين هذه الآراء .

ولقد فنيت فكرة الهدم برسالة داود وسليمان ؛ كما فنى بها ؛ ولوقت محدود
 زهدٌ وتقشف . وأصبح الجميع يراعون الأناقة ، والزخرفة في البناء ؛ على نحو
 ما كان عليه المصريون .

وحين فنيت فكرة هدم كان قد فنى معها معظم بنوة صالح وهود . . الخ
 إذ لم يكتب لها ؛ كما أرادت^(١) لنفسها بقاء . حسب المجازفة بالنفس ؛ أو حسب

(١) لذلك أطلق عليهم جميعا « عرب بائدة » ، وقد كانت الإبادة تكثر فيمن يناصر
 فزعون في مبدئه الديني منهم .

وراثۃ الأفكار . ولم يبق لكانت معول هدم للإنسانية بين حين ؛ وحين ؛
وإنها ما فنت إلا بعد أن ورثت العرب هذه الأفكار . ومن بقى منهم
ربما من اترنت فيه صفات النجدة ؛ وارتقت طباعه من وحشية إلى تضحية
وفداء . وإن العصر الجاهلي بعد ما كان إلا وراثۃ للخلاصة الصالحة من
هذه الطباع .

ومنذ ذلك الحين ؛ وفي القرن العاشر قبل الميلاد ، أخذ فن العمارة يسير
بخطى واسعة مع رسالة داود وسليمان في جميع أجزاء المعمورة ؛ تقليداً للمصريين ؛
وبمعاونة المصريين ؛ ومن تلك الآونة أيضاً أخذت الحياة العقلية تسير في
اتزان . أو أخذت تنتقل من محسوس إلى معقول .

وإننا إذا رجعنا إلى قبائل « الكاش شو » نجدهم كانوا قد صبغوا
الحياة المصرية بصبغتهم في حب حيوان ؛ أو اعتزاز بحيوان . وفي مزج الحياة
الدينية بالسحر . في أناشيد وتعاويد . وفي طريقة الرسم والتصوير ، وبنائها على
رموز من الحيوان . وقد انتقلت تلك الصبغة إلى النحت ، وصناعة التماثيل ؛
حتى رأيناها في أبي الهول وأشباه أبي الهول . وحين أراد « أسماتيك » أن
يقيم الحضارة المصرية على أساس صحيح ؛ وحين دالت دولة هؤلاء لم ير داعياً
يستوجب بقاء هذه الرموز .

هذا . . . وقد كان الهند ، وما وراء الهند وسط هذا الصراع مأوى .
لكثير من هذه الجماعات ؛ حتى رأينا تلك الروح ، أو الاعتزاز بحيوان
يسيطر على حياتهم الدينية حتى اليوم ؛ وحتى رأيناهم يقولون بوحدة وجود ،
ويعترفون بتناسخ في الأرواح بين إنس وحيوان . وربما كان منهم من نسج

للحيوان أقاصيصه التي رأيناها ، أو قرأناها في كتاب كليله ودمنة ؛ ولعلمهم كانت لهم بقية اختفت من وجه الآشوريين في قرية ما . . . أو مدينة من مدن الفرات ؛ فألفت قصصا بين إنس وجان . رأيناها في رسائل إخوان الصفا . إن هذه الناحية الأدبية لهؤلاء ما كانت وليدة يوم وليلة ، أو وليدة ترف ؛ بل كانت وليدة حزن ، وألم ؛ تعاقبت بهما الأجيال والعصور . وإنها في ذلك كأي ناحية أدبية لفترة تطوى . . . من فترات السياسة والتاريخ .

هذا وقد صحبتهم إلى الهند رغبة في زهدٍ وتقشف رأيناها فيما أخذناه عنهم في علم التصوف . أما السحر فقد كان من إرث بني إسرائيل ، وقد نبغ فيه علماء كنبوغ علمائنا في الأدب إلى الدرجة التي يسايرون بها القرآن ، وقد عضدوا به رسالة موسى كما عضدنا الإسلام بالخطابة والأدب . ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا فيه على أنفسهم ؛ فظهر على يد البعض كآيات موسى فاحتفظ به للدين . وإن الآخر قال الله فيه : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا . فَانْسَلَخَ مِنْهَا . فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ؛ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ » .

وحين جاء السحر عن طريق الشيطان دخلته أشياء اعتبرت فتنة في الدين ؛ على حين قد رجع بها آخرون إلى ما كانوا عليه من عبادات ؛ حتى كثر الشك والتأويل .

وحين أخطأ الشيطان ظن الحثيين في تناول السحر رموا بفلسفتهم على شواطئ آسيا ، وآثروا الترف والنعيم ، واعتزلوا التوراة ، والتمسك بالدين ؛ وأوتناولوها بالتحريف ؛ في حين أن آخرين منهم قد أخذ السحر معهم شكلا

طبييا فقط ؛ على أنه انتهى بأبولو ، واسقولا بوس . وحين أخطأتهم المعرفة عن طريق السحر شَمَرُوا للوصول إليها عن طريق العقل . ومن هنا نشأت العداوة بينهم وبين سكان القدس ؛ حيث نجح السحر معهم ، وأخذ شكلا دينيا ، ونبغ فيه كثير من العلماء ؛ سُمُوا أنبياء . وإن لم يصل البعض إلى درجة الأنبياء . وقد ظهرت التفرقة حتى في التسمية ؛ فهؤلاء وقفت التسمية معهم عند مقاطع لا تدل إلا على السطو ، والسرقة لمعرفة الشرق . وهؤلاء فضّلت لهم مقاطع ترتبط بالدين ؛ كما في أوردن ، وأورشليم « حلیم » .

والشعب الحثي حين أخذ تكوينه من العموريين . والكنعانيين . والجليلين . وقليل من ذرية يوسف أو نوح كان أنسب ؛ لتكوين الشعب الهيليني^(١) ؛ وأشكل ؛ لجل لواء المعرفة عن طريق العقل ؛ وأشكل ؛ لتكوين الفرق الأوربية فيما بعد . . . ولقد دعا ، أو يدعو ذلك بالطبع إلى شيء من الفوضى في الحياة الزوجية ؛ لتعود كل ذرية إلى أصل من أصولها . وقد كان ؛ ونشأ عن ذلك ؛ أو من أجل ذلك الدوريون . أي الذين يأتون زوجاتهم بالمنازل ؛ ليوم ؛ أو أسبوع ؛ أو شهر ؛ أو ريثما يتم التوافق الجنسي بين الزوجين ، وقد يستمر إذا أنجب ؛ أو أوجد جمالا في الأنوثة ؛ أو همّة من الزوجة ؛ لتشارك الزوج في جمع الثروة . ولقد أدّت هذه التجارب التي جاءت على عفو إلى نجاح هذا الشعب في بناء معرفته على العقل .

وقد نشأ الشعب الأيوني على تجارب من تلك . وهو من أين ، وإلى أين البيات ؛ إذ كانوا على زوجية تشبه زوجية البانسيونات ، وكانت الطفولة:

(١) الهيليني لغة كان منه هل ، وأين عند تجزئ الألفاظ .

فيها تنسب للأم ؛ فإذا ظهرت فيها نجابة ، أو صفة مؤثرة احتفظها لنفسه
أنجب زوج اختلف على الأم ؛ أو من قويت المشابهة بينه وبين هذه الطفولة .
وقد نشأ بينهم لما ضلُّوا فيه شيء يشبه الاستخارة عند استشارة آلهة الطب
في ذلك . وقد نجح أبولون نجاحا على غير يقين في إرجاع كثير من الذراري
إلى أصولها . ومن رأيه اشتق اسمه . أي « هو حكم بأنه أب لو كان في الإبن
كذا من صفاته » .

ولقد كان لهذه التجارب نفايات عُرفَ بها الشعب اليوناني فيما بعد . . وإن
العقل ليحكم بإرجاعها لآدم ؛ حين آثرت البقاء مع الذلة ، والمسكنة ، والفقر
على الهجرة إلى الشمال مع هذه الفرق ؛ لطلب العيش .

ولقد كان للشرق نفايات تشبه تلك لا في المسكنة ؛ بل في جمع الحطام
بأى شكل ، وعلى غير نظام . وقد عرفت بالزط والقرامطة . وقد كان نفى
العباسيين لهم إلى اليونان من قبيل ردّ الأنساب إلى أصولها .

هذا . . . ولقد ظهرت طباعٌ كثيرٌ من الأنبياء في كثير من الفرق
الأوربية ؛ امتازت بها إلى جنسيات عند نهضتها الأخيرة . فناحية دينية في
الألمان لإبراهيم . وبلشفية في الروس لسومر ، والميديين ، ثم « للوط »^(١) ؛
إذ كان يؤثر بناته بقوله فهولاء بناتي إن كنتم فاعلين . أما الغال فليوسف ،
وأما البريطانيون^(٢) . . . الخ »

(١) السوماريون هم قوم لوط ، وقد نشأت بينهم ذريته ، وفيهم نشأت لغة الفكاهة
والسمر والغناء . وهم في الأصل ذرية لنوح ، وقد ساروا مع الحياة سير الآريين . هولاء
يمدونها بالعلم ، وأولئك يخفون وطأتها بالفكاهة والأدب والغناء . ومن ذريتهم من بنى
« سميريا » عاصمة داود وسليمان ؛ وعلى عفو بنى العباسيون « سامري » .

(٢) الفينيقيون لغة من الفنيق وهو فحل الإبل . وقد كان لها شأن عظيم في مدسفن =

ولقد كان انتقال الفينيقيين إلى شمال إفريقيا انتقالا لأواصر النسب والمعرفة لنوح مع الليبيين ؛ وما لبث هؤلاء أن نمي فيهم حب الاستطلاع ، وحب العودة إلى الشرق ؛ لينهلوا من معارفه على نهج ما كان عليه علماء الأندلس من المسلمين . ولقد كانت تصلهم أخبار كثيرة عن سليمان ، وملك سليمان عن طريق الفينيقيين ؛ وحين عاينوا الموقف لم يجدوا أنفسهم أقل جدارة من المصريين في حمل لواء المعرفة ، والسياسة على ضفاف النيل .

وحين اغتصب شيشاق^(١) كنوز سليمان اغتصب معه كثيرا من نسوته ؛ حتى صارت هذه سياسة ؛ نهج عليها الليبيون مع الفينيقيين . ولعل ذلك كان استكمالا لعقلية الفينيقيين في السياسة إن أغوزتهم سياسة ؛ عن طريق الوراثة من الأمومة السامية المتخلقة في ربوع العلم ؛ وعلى ضفاف الشام . وربما كان ردا للأنسب إلى أصولها بعد عوز في المعرفة .

== الفينيقيين بالتاجر . وربما كانوا يمتلكون التجارة أيضا على ظهور القوافل ؛ حتى غلبت عليهم هذه التسمية . أو كانت لهم كذلك من قبل . ثم تدرجوا منها إلى التجارة على ظهور السفن .

(١) « شيشاق » ملك لبي حكم وادي النيل لعهد سليمان بعد أن تنازل عن الحكم له كهنة بني إسرائيل ؛ إذ كانوا قد استطاعوا بعد أسيرة الرماصة أن يؤسسوا مرة أخرى أسرة حاكمة ؛ وحينما هاجروا إلى الصعيد كانت هذه الهجرة لتلقى رسالة أيوب بالبشارة . وقد استطاع هؤلاء الكهنة أن يأخذوا المصريين بتعاليم بني إسرائيل ؛ وأن ينشروا بينهم مذهب أيوب في السحر . وكان يقوم على محبة القطط ، وتدليلها ؛ فإن أدى نتيجة عين لمن يفقد الصلة الزوجية . قط أو قطرة ؛ لتصاحبه أثناء الإختلاط الجنسي ، وإلى هذه تنسب الفكرة التي تشاع عن المصريين من أنهم كانوا يعبدون القطط . وربما ينسب إليها أيضا قوله تعالى : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » ومن هذه الآونة شاع استعمال لفظ « هر » أو « هير » تسمية لقط . أو دلالة لما يأتي عنه من خير . وحين صقله اللسان العربي نقله من هير إلى خير ؛ في حين أنه لا يزال على نطقه الأصلي في أقصى الصعيد ، وعند قبائل من السودان .

ولقد احتضن هؤلاء الليبيون المعرفة على ما فيها من تضارب وتضاد ؛
و حين حسبوها وحدة متماسكة وقعت من نفوسهم موقع أى معرفة من عقول
العامة ، و بنيت فى أفهامهم على شىء من الصلابة ، ولم يتيسر للقوم أن يتحللوا
من فكرة إلى فكرة ؛ أو يخرجوا من رأى إلى رأى ؛ حتى نمت فيهم
المبادئ الثورية على نحو ما عرفنا به الخوارج .

— ٣ —

... و حين ترك سليمان ذريته باليمن تركها ؛ لترث بقية من سحر ورثته
عن جدودها بلقيس ، وقد تضائل حتى صار عرافة ، أو شعوذة ، أو تنفا من الشعر
فى بيت . أو بيتين ، وعن هذه البقية نمت فكرة التنبؤ بين الشعراء ؛ وما زالت
تلك ؛ حتى حملها الشياطين مع الشعر لكثير منهم .
ولقد كان السحر فى معظم أطواره يستغل فى بناء الحياة الزوجية على شىء
من الحب ؛ إذ كانت الصلة بين الزوجين فى شبه انحلال . ولقد استطاع سليمان
برسالته أن يصلح من ذلك ما كان فى الإمكان^(١) .

وقد عبرت باب المندب إلى إفريقية ذرية له . وقد استطاعت هذه الذرية
أن تؤسس لأيوب رسالة فى هذه البقاع ، وقد بنيت على فكرة « أحب شيئا
أم لا ؟ » ، ومن هذه سميت البلاد حبشة ، ومن لفظ أيوب ، أو معناه « أى
« آب يؤوب » سميت أيضا أثيوبيا ؛ إذ كان قد أحب العودة إلى أهله
أو وطنه باليمن ، ولكنه لم يستطع ! إذ كان قد اغتصب . وحينئذ أراد الله

(١) قد عمت إلى هذا الإصلاح إصلاح أزواج بعض الأنبياء كما فى قوله تعالى « و زكريا
إذ نادى ربه : رب لا تدرنى فردا : وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى .
وأصلحنا له زوجة . . . الخ » .

على العودة عن طريق الوادى ؛ وما زال يجد فى المسير ؛ وفى تأسيس رسالته ؛ حتى وصل إلى الشلال الرابع ، وحينئذ كان قد أجهدته الحر ، وأنهكه التعب ، فقال له ربُّه : « اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » . ولعل ذلك كناية عن تأسيس عاصمة ؛ لطول إقامة ؛ فيها ، وعرفت بـ « نباتا » وحين أدركته الوفاة تولاها عنه باليمين أخوان له . هما « بعنخى » و « سبا كون » أى « عن أخى هذا الملك ، و « سبا هى الكون » ، وما زال فى جهاد ؛ حتى كان لهما حكم على ضفاف النيل .

و حين غلبت آشور على الوادى ؛ وأرادته أن يكون للمصريين اضطرت بقايا هذه الأسر . من لبيين . أو أثيوبيين أن تعاشر المصريين على التجارة على ظهور السفن ؛ حتى يستطيع كلُّ أن يعود إلى وطنه . وقد استطاعوا مع المصريين أن يخلفوا الفينيقيين فى فن الملاحة . حينما أخذ هؤلاء ينحدرون إلى الجزر البريطانية ؛ كما استطاعوا أن يوجدوا فى النفوس شوقا إلى تعرف منابع النيل بما قصوه على المصريين عن هذه المنابع ، وقد أثبتوا برحلة بحرية أن إفريقيا تحيط بها المياه ، ولكنها كانت فكرة ساذجة ؛ حين بنوها على أنها تنتهى عند باب المندب ؛ إذ كان نقطة انتقالهم إليها من آسيا ، وحين فهموا أن النيل ينبع من المحيط الجنوبي .

ولقد قام هؤلاء بحركة علمية فى الخفاء ، أو بعيدا عن السياسة أرادوا بها أن يبنوا معارف المصريين ، وحضاراتهم على شئ من الفلسفة ، أو التطلع إلى ما وراء الطبيعة . وكانوا كثيرا ما يلتقون باليونانيين ؛ ليأخذوا عنهم خبرا أو معرفة لذلك فى طريقة أو مذهب . ولقد استطاع الزمن بفضلهم أن يوجد (٦ - بعث)

على ضفاف الوادى فلسفة ؛ ولكنها كانت دينية^(١) أكثر منها عقلية أو تريد التوفيق بين بين .

وقد عُرِفَ هؤلاء ، أو هذه البقايا عند الرومان والإغريق بالبربر . من « البر » أى « القمح » . كما عُرِفَ الفينيقيون بالبريطان أى « حملة الأطنان من البر » .

وهؤلاء البربر ؛ أو جزء منهم ؛ وهم الأيوبيون قد افترق بهم الطريق ؛ فجاعة آثرت شواطئ آسيا ؛ واستطاعت أن تعاشر الكلدان على قرابة ما من داود وسليمان ؛ كما استطاعت أن تكون لها بينهم قومية عرفت بالموايية أى الرجعة إلى الوطن ، أو أى معنى آخر حسب ما يتضمنه اللفظ . وقد عرفوا حديثا بالأرمن ؛ بعد مصاهرات ، أو بقايا مصاهرات مع الآراميين . وأخرى وهى الجزء الأعظم . كانت تؤثر أن تسير غربا ؛ حينما علمت أن جزءا من قرابة الجدود قد انتقل مع بقايا الحثيين إلى اليونان . وقد كان الانتقال يغلب أن يكون من « تساليا^(٢) » وكان البعض حينما يضع أمله فى العثور على قرابة لجد من جدوده يقولون له : « Etly إيطاليا » أى إيت هذه النقطة من الأرض فقد طال فيها الغرس ؛ أو نمت فيها ذريته . وربما كان المقطع « يا » وكذا الحرف « Y » فى هذا التعبير للدلالة على الكثرة والاستبعاد ؛ إذ يتضمنها كذلك فى العامية . وهو الذى استبعد به الفينيقيون . أو استكثروا العودة إلى مدينة « صور » وكان من ذلك سوريا . أو التسمية لسوريا . وربما كان

(١) ليست العقائد الدينية لاذك بحيث تصلح لكل زمن ؛ بل كانت دائما فى حاجة إلى تغيير لتساير تطور العقل .

(٢) « تساليا » اسم مقاطعة ومنه لغة . تسأل ، يا أوياء مقطع استكثار أو استبعاد .

هؤلاء الأيوبيون مؤسسي مدينة «روما» ؛ محاكاة للفينيقيين في بناء قرطاجنة^(١)
وقد بذل هؤلاء جميعا مجهودا كبيرا في تأسيس صرح المدنية والمعرفة ،
كما كانوا وصلة خير بين شرق وغرب .

هذا وقد استطاع الليبيون أن يتجهوا إلى قرطاجنة مع الفينيقيين لتأسيس
معرفة أو عودة لوطن . وما زال الفينيقيون أو البريطان يحملون حب العودة
إلى الوطن المقدس ؛ أو حب المساعدة لها ؛ حتى أخذ أشكاله المعروفة^(٢)
في التاريخ . وربما كان ذلك عوداً لأصول إلى أصول . أصول قد نمت ،
وصلحت للبقاء إلى أصول قد عركها الدهر ، فنجحت في ابتلاء ، أو تجربة
من تجارب الحياة . وتلك سياسة الله ، وسنته في خلقه . ولن تجد لسنة الله
تبديلاً .

(١) «قرطاجنه» لغة من قرطان ثنية قرط ، جنة . أي غرس هنا وفي شمال إفريقيا ،
وآخر على ضفاف الأندلس ؛ للوصول بهما إلى جنة آدم ؛ إذ الوحي كان دائماً يذكرهم بها ،
ويطلب منهم السعي للوصول إليها . وحينما يتسوا منها اعتقدوا أنها في السماء ، وأن الوصول
إليها يكون بعد الموت . وعلى كل فالفكرة صحيحة من كلا ناحيتيها .

(٢) أقصد بذلك تكوين الإمارات الصليبية بالشام ؛ ورغبة الصليبيين في امتلاك وادي
النيل ، في أواخر عهد الفاطميين ، وبعدهم في عهد صلاح الدين الأيوبي ؛ وغير ذلك مما تسجله
الآن أحداث السياسة والتاريخ . وربما كان ذلك ؛ ليظل من مات من الأصول على اتصال
بنمو اللغة العربية ؛ وليكون من سيموت من هؤلاء كتراجة لمعرفة الشرق في الآخرة ؛
وليكون شأنهم في ذلك شأن المستشرقين في الدنيا .

رابطة في اللغة

لعلنا فهمنا أن اللغة ما كانت إلا إنشائية ؛ وأن تسمية لا يصح أن تسبق مسماها في لغة العقل ، وكنظام من نظم التربية والتعليم ؛ وأن تكويننا في الحضارة ، وبناء له في اللغة ما كان إلا اجتهدا .

ولقد أطنب علماء اللغة في اصطلاحات سموها أسبابا ، وعللا تفاوتت بها لهجة عن لهجة ؛ وافترقت بها لغة عن لغة . ثم قالوا : إن اللغة كانت واحدة . وحينما عجزوا عن الربط بين هذه اللغات قالوا : إن أصلا من أصولها قد ضاع . ولقد فكرت كثيرا . كيف تكونت لغة ، وكيف افترقت إلى لغات . ففرضت أن الناس كانوا كتلة واحدة ، وفي صعيد واحد ، ثم تفرقوا أيدي سبا ؛ وانقطع بكل فريق أسباب المواصلات ، وأسباب التآخي والتعارف . وأن العزلة كانت تامة بين كل فريق وفريق . ثم أخذ كل يبنى لنفسه حضارته ، ويستنبط لكل تجربة تسمية ؛ لتكون له لغة . فهذا يبنى ويسمي بناءه عشا ؛ وثان يسميه كوخا ؛ وثالث يسميه بيتا ؛ ورابع يسميه « هوس^(١) House » وذلك يسمى حيوانه حصانا ، وثان يسميه فرسا ، وثالث يسميه مhra ، ورابع يسميه « هورس^(٢) Horse » .

(١) هوس : هذا اللفظ يمكن إرجاعه إلى اللغة العربية باعتبار أن الهاء حرف تعريف في العبرية ، وبقى مع اللفظ حتى صار جزءا من الكلمة . أما بقية اللفظ فمن الـوس أي الوسوسة : أي إلقاء الحديث في سر ، أو عن جان ، ولتناسبة في التسمية ظاهرة ؛ إذ إلقاء الأسرار دائما يكون في النازل .

(٢) هورس : هذا اللفظ يمكن إرجاعه إلى اللغة العربية باعتبار أن الهاء أيضا حرف تعريف في العبرية . أما بقية اللفظ فمن الـورس وهو خضاب الحناء ؛ وهذا اللون يغلب أن يكون لونا لهذا الحيوان ومنه كانت هذه التسمية .

هذا ما يقال ، أو تحديد لما يكون عند وقوع معرفة ؛ أو تجربة أخرى
السكين ووعاء . أو لباب ونافذة ، وهذا فيما يضطر إليه الإنسان من وسائل
العيش . أما في الكماليات فسيكون الأمر فيها على أشد الافتراق . فقد لا يتفق
الزمن بينهم في بناء نوع واحد منها ؛ وقد يسرع واحد في الإنشاء والتجديد ؛
وقد يقف ثانٍ عند السكفاف ؛ وقد يتردد آخرون ما بين إنشاء ، أو وقوف على
قديم . فإذا فرضناهم جميعاً قد عادوا بعد زمن ما . . . إلى تعارف ، وإخاء
كان لكلٍ لغته على ما فيها ، أو بينها من تفاوت في نقص أو كمال ؛ وكان
من الصعب أن تفهم أمة أمة ؛ أو يقف فريق على معرفة فريق .

حينئذٍ ، وعلى هذا القرض فهمت سبباً واحداً فرضته لهذا الافتراق ؛ ولعله
لم يكن من بين هذه الرموز ، وتلك الاصطلاحات . فهمت أنهم لم يكونوا على
اتفاق عند التسمية لكل جديد . هذا إذا فرضناها عزلة تامة ؛ ولكن من
يتتبع أحداث التاريخ سيجد الأمر كان على خلاف ذلك ؛ وسيجد أن الناس
كانوا على تعارفٍ وصلة ؛ وأنهم كانوا على لغة واحدة إلى عهد قريب ؛ وأنهم
كانوا على تقارب في الوطن ، أو في حالة تركيز . وإن هذا السبب الذي
فرضته لا يتحقق أيضاً تطبيقه إلا عند الميلاد . أما فيما قبل ذلك . أو ما دون
ذلك من أسباب فلا موضع له من عقل أو تفكير .

هذا إلى أن اللغة من قبل ما كانت بالكثرة في الألفاظ بحيث تصح
القسمية . أو تسمح بافتراق ؛ إذ كان اختراع لفظ ، أو تكوين شكل كتابي
لا يقل في قيمته أو ظهوره عن حدثٍ في عالم التأليف ؛ أو استنباط في
نظريات الفلسفة والعلوم . وكان سرعان ما تناقله الألسنة ؛ ويشاع بين الجميع .

هذا كان عمل القوم ، وذلك تجديدهم . لنا ، ولهم . وإنه مما لا تقع به فرقة ، أو يصح فيه اختصاص .

قد يقال إن اختلاف البيئة له أثر في تفرقة ، أو اختلاف . والواقع أن البيئة واحدة في كل مكان . فالشجرة على ضفاف النيل هي الشجرة على ضفاف الفرات . والأسد هو الأسد في كل مكان . وإذا تعددت تسمية لهذه . أو ذاك فستتجمع هذه التسمي ، ويتعارفون فيها على الشكل والصورة . هذا فيما تتساوى فيه كل بيئة ، أو مجموعات متشابهة منها . أما فيما ينقصها ، أو تتفاوت فيه فسيصل إليها عن تبادل تجاري ، أو تعارفٍ سياسي .

هذا وإن أمما أو قوميات يُدَوَّن لها التاريخ كانت على عنف في السياسة . بحيث لم يتيسر لكل واحدة أن تحتفظ بمعرفتها ، وتجاربها في لغة وحضارة . ولقد كان تفاوت بين حضارة وحضارة تفاوتاً بين تكوين لغوي وتكوين وإن الأرقى من ذلك إنما يكون طعمة لقوم أولى بأس شديد يسكنون الصحارى والقفار ؛ وإن الحالة بعد كل بعث أشبه بحالتنا بعد الإسلام ؛ وإن إرث كل نبوة إنما يقوم على عمليات مزج بين ما تجمع من ألفاظ ؛ ليكون لغة لعصر جديد

هذا ما رأيناه في فناء لغة عبرية ، وأخرى سريانية ؛ لتخلفهما لغة عربية ، وهذا تقدير لما لم نره لما سبق من نبوءات ، وإنه لإرث باقٍ ، وتحفظه كل لغة في كثير من الألفاظ ، وإنه لن يقف عند « أب » أو « أم » . وغيرها من ضروريات الحياة .

ولقد كان من الخير أن كتبت الأمية على سكان البوادي ؛ ليتيسر لهم المزج بين هذه الألفاظ . بصرف النظر عن تحديد في النطق تحدده لغة الكتابة ، وحتى

تبقى لكل لفظ حريته في التعبير . بصرف النظر عن أحرف العلة ، أو أحرف الإمالة ، أو تقارب في المخارج . وإن ذلك بعد وسيلة لتزويد اللغة بثروة لا بأس بها من الألفاظ ، وأشكال الكتابة ، والتدوين ، ومنها . أو عنها يتولد اللفظ للمعنى الجديد .

إِذَا فَلَنَعُدُّ إِلَى الْمَاضِي لِنَعْرِفَ كَيْفَ نَشَأَتِ اللُّغَةُ . . . وكيف أخذت تفريعاتها الجزئية ؛ لتسكون لغة لعصر جديد .

لقد كان الإنسان حينما حاول أن يضع لنفسه لغة . يضع للحالات الفكرية والانفعالات النفسية التي تجول بخاطره أشكالا ورموزا اعتبرت فيما بعد أحرفا . وكان يماثل في الرسم بينها وبين صور من الجسم أو جزء منه . فالميم مثلا كان يقف في التعبير بها وحدها عن الأمومة ، ويرسمها بالشكل الذي تكون عليه الأم أثناء الحمل . أما الألف فلشكله أثناء ما كان يصدر أو امره — أي واقفا — ولما كانت الأم كثيرا ما تتدخل في هذه السياسة ؛ وكثيرا ما كان يخلف الأب عليها أكبر أفراد الأسرة ؛ لتبقى الملكية مركزة فيها — جاء فيما بعد من ذلك لفظ « أم » . ولفظ « أسرة » أما السين فلهذا الفرد . وأما ثلاث سنن لها فلعقود ثلاثة من عمره . أي حينما يبلغ الثلاثين ؛ وحينما يتكامل نمو أسنانه وأضراسه — وعندما أمكنه أن يوجد للقراءة والنظر حرفا هو الراء استطاع أن يلحقه مع حرفه إلى الألف فكان هذا اللفظ . أي « أسرة » ، وربما جاء على هذا النمط لفظ « أمر » . وحينما كان يضاف هذا الحرف — أي السين — في التسمية مع الأعلام — عربية أو أجنبية — كان رعاية لجانب هذا الفرد في شئون السياسة . أما إذا أريد به الحالات

الفكرية التي تجول في النفس فكان يُقَدَّم معه حرف الراء . فنشأ لفظ : — « رمس » — إشارة إلى تلمس روح الأم في المعابد ، وقد انتقل هذا اللفظ أخيراً إلى معنى قبر ؛ كما تنوع من « رمس » إلى « رمز » حسب المقاربة في النطق بين سين وزاي .

أما هذا الفرد إذا أريد به فرداً آخر . ومن الأسر التي لا تقوم برئاسة في سياسة ، أو تعليم فكانوا يخصصون له الشين . وقد تنوع فيما بعد إلى حاء للمصاهر ؛ كما اختص به اسم من الأسماء الخمسة ؛ أو خاء للشقيق بعكس التاء ؛ إذ كانت رمزا للأخت . أما التاء فكانت للخالة . . ؛ أو الأخت البعيدة ؛ كما في « أثيوبيا » . ولما كثرت الإخوة كان لهم حرف الواو على عكس ؛ أو مشابهة في الرسم من حرف الميم ؛ أو للدلالة على أن نموهم كان من الأم ، وفي حضانة الأم .

وحيثما كانت تتداخل دلالات هذه الأحرف بعضها ببعض يبدئون للمعنى الجديد لفظاً من حرفين ؛ فنشأت المقاطع التي ندرسها في علم اللغة للكلمة وكان من ذلك : —

« يم : أو yem » رمزا للطفولة ؛ وكثرتها أثناء الحضانة ؛ إذ كانت الياء دلالة لذلك ؛ كما في المقطع — يو — في العامية . وكان يضاف هذا المقطع إلى تسمية للأطفال أثناء قيامهم ، أو تمرينهم على الحرف ؛ كما في إفريم . أو إبراهيم — من إبر الخياطة . أو من أف : علامة تضجر . وقد بقي على شكله الصوري بمعنى « بحر » ؛ كما أضيف إلى تسمية للأبطال أثناء تمرينهم على الملاحة . وكان منه بطليموس : أي « بَطَلُ يَم » وحين توسطته الواو كان لفظ — يَوْم — على دلالة الأولى — أي جماعة أو كثرة من الإخوة

الذكور تقضى مع الأم جزءاً من الزمن ؛ ثم تعود للملاحة . أو السفر — وقد اقتصر بهذا المقطع أخيراً ؛ ليكون علامة جمع في اللغة العبرية ؛ كما في « هَشَامِيم » أى — السماوات — وربما كان المعنى فى الأصل . أن سماء تظللنا ، ونحن على الأرض هي اليم ؛ أو هى التى تحيط بنا ونحن فى اليم . وربما كان استبدال التاء بالميم فى اللغة العربية . من أتى يأتى . أى أن السماء قد أتيناها من كل جهة ؛ لنعرف كيف تتصل بالأرض .

يس : « أو yes » . علامة تصديق . أو إجابة . وكان الرمامسة يضيفونها إلى لفظ « رمس » ؛ كما فى رمسيس ؛ ليناثوثوا بها دين بى إسرائيل — أى أن عبادة القبور فى شأن عودة الروح تلقى تصديقا كثيرا من الأسر . وقد بقى هذا المقطع فى اللغة العربية على حرفيته فى النطق ؛ للحلف به ؛ كما فى قوله تعالى : « يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » . أو للبشارة بالإله أو الإنسان المنتظر ممن يؤثرون التسمية له فى الولادة بـ « إل » كما فى — إيليا — أو — إلياسين — أى الذى يصدق من الجميع ؛ والذى يستطيع أن يجمع شتات الأديان .

هذا وحين قُدِّمَتِ الرءاء مع هذا المقطع أخذ معنى رئيس . أو رئيس أو رأس . وقد اختصت الأثيوبيه بالآخر ؛ كلقب من الألقاب . ويراد به فى أوزوريس — مؤازرة للرأس أثناء النوم . وقد يسمي به رئيس يقوم فى ليل على حراسة ، وحفظ أمن . وقد يراد به الرؤيا التى يُبْنَى عليها عمل الغد ؛ وأن هذا العمل يجب أن ينفذ بأى شكل ؛ وعلى شكل واجب منوط بالنفس . وقد ظهر أثره واضحا فى حب المصريين للعمل ، وتمسكهم بالواجب .

أن : أو « an » . مقطع توقيتى من الآنية ؛ إذ كان يقدر معها الزمن مع

زمن الطهى . ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » . وقد تنوعَ إلى « آن » أو « أوان » وفي الانجليزية إلى now . أما الآنية نفسها فماخوذة من حرف النون ، وقد بقي آخذاً شكلها في الكتابة . وقد تنوع معها في المعنى هذا المقطع إلى مقطع جديد هو أون « ouп » وكان رمزا لتعليم الأنوثة فن الطهى . على العكس من المقطع . أور « our » . وهذا المقطع الأخير إن توسطته الميم بدل الواو يكون بمعنى إصدار الأمر من فرد واحد لا من جماعة ذكور كما مرَّ . أما إن توسطت الميم المقطع « أون » . فيكون بمعنى طهي الأمومة ، أو رمزا للزواج بها من أى فرد بعد وفاة الأب ؛ لتبقى الملكية في نفس الأسرة ؛ كما في « أمون » . أما إن توسطته التاء فيكون رمزا لطهى الأخت ، أو الزواج بها ؛ حين تصل الأم إلى سن اليأس ، أو حين يرادُ خروج ملكية من أسرة إلى أسرة ؛ كما في إخناتون ، وأسرة إخناتون ، وقد بقي هذا المقطع أى . « أتون » في اللغة العربية اسما لأخدود النار . أى « الكانون » . وقد ظهر الأخير في « فولكان » أو « بركان » وكان منه فعل الكينونة — أى هذا الغذاء ، أو هذا الشيء كان خضراً أو ... أو ... ثم صار طعاماً أو ... بعملية الإحراق أو الطهى أو ... الخ .

أما الكاف فكانت دلالة على نموٍّ وكِبَرٍ ؛ كنتيجة لهذه التغذية . وأما الهاء فكانت دلالة على هذا النمو ؛ حينما يكون في غيبة عن المشاهدة ، ورؤية العين ؛ لذلك كانت تطلق على الجنين أثناء تكوينه ، ومن هذين الحرفين كان المقطع « هك » في « هكسوس » ؛ وكذا لفظ « كاهن » .

هذا وقد تنتقل جماعة ومعنى من معانى ألفاظها على حرف ، وقد تنتقل

أخرى، وهذا المعنى على حرفين ؛ في حين أن هذا المعنى في المنشأ يكون قد أخذ تكوينه بعد هذه الفرقة من أحرف ثلاثة ؛ أو أكثر؛ فنشأت عن هذه التفريعات الجزئية ؛ التي تتفرق بها اللغات إلى حين .

فمثلاً لفظ « شَبَعَ » أو معناه كان في الأصل دلالة على تعليم ، وسعى من أجل العيش ، وقد تكون عند قوم من الشين فقط . وهم القائمون بأمر التربية لأفراد آخرين من غير أسرهم . وقد صار منه عند آخرين شَبَّ . أى « نَمَى » . عندما تناول الأب هذه التربية ؛ إذ شاركت الشين دلالة أبوية للباء . وعند ما ثُلَّتْ بالعين عند قوم كان دلالة لقدرة على متاجرة ، أو بيع ، أو مبادلة عين بعين ؛ إذ هذا الحرف . أى « العين » لهذه الدلالة في الأصل . وقد وقف هذا اللفظ أخيراً عند معناه المعروف .

ولفظ : « Drum » . بمعنى طبل قد أخذ تكوينه على هذا النحو وهو في الأصل من الضرب ، وقد بنته جماعة على الدال والراء ؛ فكان لفظ « دِرَّة » . وافتقرت به . وحين ثُلَّتْ بالباء كان دلالة على ضرب ، وتأديب من الأب . وحينما كان ذلك التأديب من الأم ثُلَّتْ بـ « m » ثم صار أخيراً ؛ وبعد نجاح هذا التأديب بمعنى طبل وزمر . وربما كان منه إضرار النار في الأفراح لطهى الطعام . أما في اللغة العربية فقد صار إلى ضَرْبٍ بصرف النظر عن تقارب بين دال وضاد ؛ أو بقى بمعنى « دَرَبٍ » أى طريق .

أما الطاء فكانت شكلاً ، ومعنى دلالة لبطن . أو طعام . وإن بقيت ، أو خففت . فقوط . أو قوت ؛ ومنها قَوْدٌ . أو أَوْدٌ .

وقد كانوا يعبرون عن مجيء الأب بطعام ؛ يُطهى في أنية ؛ ليعبأ في البطن .

بلفظ بطن ؛ إذ لم يكن لديهم لكل معنى لفظ . أو تعبير ؛ ثم انتقل هذا اللفظ أخيرا ؛ تسمية لهذا الجزء من الجسم . أما الباء فللأب . وأما الطاء فللطعام . وأما النون فللآنية . وحين دخلته العين دلالة على انتهاء عملية البيع ؛ وحين استعويض عن الباء بالميم جاء لفظ طعام ؛ لتدخل الأم فيه بسياستها في عملية الطهي .

هذا والنفي في كل لغة مبنى على النون وحدها . أو مع حرف آخر ؛ كما في «no . أولن» ؛ وقد تسقط النون ؛ إذا أمكن لهذا الحرف أن يخلفها في النفي مع حرف آخر . وهو مبنى على . « هل في الآنية شيء أم لا ؟ » وقد أخذ فعليته مع الفاء في اللغة العربية من الهيروغليفيه من « منف » أو « منفيس » أى « نقص السكان بالوفاة موجود في هذه المدينة » .

والمقطع سَمَّ أو سَوَمَّ . من الألفاظ ، والمقاطع ذات الدور الأول في تكوين اللغة ؛ وكان يعبر به عن حالة تنديد من بقية أفراد الأسرة ؛ إذا استأثر أكبر أفرادها بالأم ؛ وكان في حالة ضعفٍ يستوجب ذلك . أو كانوا ؛ بحيث يأخذهم صوت عذاب منه .

هذا . . وإذا اعتبرنا أحرف العلة ، أو أحرف الإمالة مما اختلفت به لغة عن لغة ؛ أو لهجة عن لهجة ، وأمكنا أن نصرف النظر عنها ؛ لإرجاع اللفظ إلى دلالة حرفية ، أو مقطعية . . . استطعنا أن نعرف تطور اللغة ، واستطعنا أن نعود بكثير من الألفاظ الإنجليزية . أو اللاتينية إلى لغة عربية .

فمثلا « Four » بمعنى أربعة من « بؤر » أو « بؤرة » أو « بئر » ؛ إذ يحفر بأربعة أضلع مستوية . وحين أراد الأوربي أن يشتق لفظا لهذا العدد ينطق به أخذه من تسمية هذا الشكل الهندسى . وربما كانت الدلالة الأولى

هذا العدد الباء مع الراء بأي وضع ؛ وحين أريد به التقدير في مبادلة . أو بيع بُر وغيره دخلته العين ؛ في حين أنه اختصه القيثاغوريون بهذا الاسم .

ولفظ « Five » بمعنى خمسة من « بَيْب » أي « باب » وهو في الأصل من اللغة العربية ، ومأخوذ من باب الكهف ؛ إذ يمثله في الشكل . وحين أريد له عندنا لفظ ينطق به اختير له أن يكون من دلالات الأحرف التي يتكون منها لفظ خمس ؛ ومن عدد الأزواج التي يمكن أن تنتج الأم ذرية معهم قبل سن اليأس ؛ في حين أنه بقي عند آخرين في نطقه على الأصل .

ولقد كان التنويع في النطق بين كاف وقاف ؛ أو بينهما وبين المهمزة كما هو شائع في العامية من الطرق التي كانوا يكثرون بها الألفاظ ؛ أو ينتقلون بها من معنى إلى معنى آخر ؛ ولو بغير مناسبة .

فمثلا لفظ « أنعان » في العامية بمعنى « شعبان » وقد أخذ منه للعربية الصحيحة لفظ « كنعان » ؛ إذ كان عامي اللغة قديما أسبق إلى اللسان من صحيحها . ولفظ « OLL » هو لفظ كل ؛ وقد هاجر به القينيقيون قبل أن يتنوع النطق به بالكاف ؛ وكان يُعَبَّرُ به عن تحول الجماهير ؛ وهجرتهم من شرق إلى غرب . وقد بقي في اللغة العربية بهذا المعنى ؛ كفعل أمر من آل يؤول .

وكان يقوم مقامه المقطع « جَمْ » أو « جُم » وهو لا يزال في العامية بمعنى جاءوا ؛ وحينما كانت تتجمع هذه الجماهير ؛ لمبيع يضاف له العين ، وكان من ذلك لفظ « جمع » أو « جميع » وحيما كانت تتجمع من أجل السياسة أو الدين يضاف له « آهور » وكان من ذلك لفظ « جمهور » .

أما التنويع في النطق بين « زاي » أو « ذال » أو بينهما وبين « السين »

و « الشاء » فأمر شائع ومعروف ؛ ويمكن به إرجاع كثير من الألفاظ اللاتينية إلى حظيرة اللغة العربية ؛ كذا التنويع بين « دال » و « ضاد » أو بين « فاء » و « باء » كما مرَّ .

والهاء حينما أريد بها أن تكون دلالة على حالة غيبية تُؤثِّرُ في الـكون أُتُّخِذَتْ حرف تعريف للأشياء التي أمكن الوصول بها إلى معرفة ؛ وقد لازمت كثيرا من الألفاظ ؛ حتى صارت ؛ كجزء من الكلمة ؛ وحين جدَّت حروف أخرى للتعريف « كال . أو La . . أو The » تنوَّسِتِ الهاء كحرف تعريف ؛ وتنوَّسِتَ معها علمية هذه الألفاظ .

فمثلا لفظ « هامان » في الأصل بمعنى الرجل ؛ وقد أسرع الفينيقيون حين أخذوه بهذا المعنى وهذه الأحرف قبل أن تلازمه الهاء .. وهو من الأمنية التي يرغبها الأب لبنيه ؛ أو من قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ . »

أما « Hand » بمعنى « يد » فقد لازمتها الهاء ، وتنوَّسِتَ فيه ؛ وهو مأخوذ من الند . أى « المماثل » ؛ إذ أن إحدى اليدين لا تفترق في شيء عن الأخرى في الشكل والمائلة .

هاتور : لفظ مكون من هذه الهاء . ثم المقطع « تو to » . وكان يرمز به لقرنى البقر . ثم الراء ، وحين انفصلت الهاء ؛ لتخلفها « أل » كحرف تعريف صار تسمية لذكورها ، ومن هذه الدلالة الإثنية كان لفظ « تورا » أى الدور الثانى فى تكوين العقيدة بعد إبراهيم ، ومنها أيضاً « photo » بمعنى مصور ؛ إذ بعمله يوجد صورة ثانية على الورق للإنسان . وربما كانت الفاء فى المقطع

الأول باء الأب ؛ إذ يأتي الإين دائما صورة ثانية لأبيه ؛ وربما كانت التاء أيضا لهذه الدلالة حينما كان يكثر الزواج بالأخت . ولعلها كانت الأصل .

وحين انفرطت العقيدة الإسرائيلية في شأن يهوذا قبيل الميلاد اختصت اللغة الإنجليزية من اسمه بالذال كحرف تعريف فقط . أما البدو فقد أخذوا منه الهاء ؛ ليتم المقطع « أل » لفظَ جلالة له سبحانه .

وقد كان انتقال حرف « الشين » في النطق إلى « هاء » حينما أمكن للعقل أن ينتقل من محسوس إلى معقول ؛ ليدل اللفظ بها . أو معها على روح ، أو غيبة في ضمير ، أو حديث مضي ، أو يرجى له عودة ، أو هيئة حسنة مرجوة ؛ كما في لفظ « أهرة » ومنه كان لفظ « آخرة » ...

وقد كان هذا الرقي العقلي حينما أمكن للآريين أن يتخلصوا من « آشور » كإنسان ، وحينما أرادوا به قوى من الخير تسيطر على البكون ؛ لذلك انتقل هذا اللفظ معهم إلى « آهور » أو « آهور مازدا » . ثم رمزوا للذرية يتغلب عليها شر ، أو لتناسل يقصد به الوصول إلى « آشور » كإنسان بلفظ « أهرمان »

وحينما اتخذ المقطع « أل » حرف تعريف كان قد تنوع إلى « آل » بمعنى « أهل » ثم بمعنى سراب ؛ إذ كان هذا اللفظ في الأصل بمعنى « سيرة أب كامنة في الطفولة » ، وقد شاركه هذا الأخير . أي « سراب » في معناه الأخير . أي « تربية للذرية ؛ ثم فناء ، وتمسك بمن فنى على غير طائل » وكان من ذلك على أي معنى « سرايوم » على العكس من « رمسيوم » ، وكان أيضا لفظ « هبل » عند العبرانيين عن الوصول إلى « آشور » أو « إل » كإنسان ، أو التردد في شأنهما ؛ إذ المعنى بعد اختزال الأحرف « هو... بل ننتظر » .

غيره » ، ومن الأخير كان لفظ « Double » . أى التمسك بناحيتين من الأمر حتى تظهر الحقيقة . أما الدال فاسم إشارة . وأما الباء فباء الأب ؛ إذ به تقام ، وتكون الأسر . ثم صات للسببية .

وحينما بلغ اليأس من بنى إسرائيل مع « يهوذا » أو من « آشور » تسمو وسموا كثيراً من ذريتهم « بأمون » عليه ذلك الإله ، أو الرئيس المنتظر ؛ ولكن بالاستغناء عن الهمزة بالعين ، فقالوا : « عمان » و « عمون » و « عمانويل » وقد تدرج ؛ ليكون تسمية لعمومة

ولقد كان وضع الألفاظ يراد به فى الأصل أن يطابق حالة اقتصادية أو اجتماعية ، أو موازنة بين شيئين فى زمن ، أو حجم ، أو فى وزن وكيل . من ذلك : —

« Minutes » بمعنى دقيقة ، وهذا مأخوذ من « مَن » أو « منا » وعاء صغيراً لكيل . « أوقيانوس » من « أوقية » ، « No » ... الخ. أى . « المحيط لا يستصغر شأنه » .

« نوفمبر » من « No » ، « فم » ، « بر » أى لا تتوسع فى غذاء من « بُر » فى هذه الفترة من الزمن ؛ إذ المحصول على نهاية وبداية ، وربما وصلت حالة التنديد والمؤاخذه إلى الدرجة التى أوثر لها لفظ « ديسمبر » تسمية للفترة التالية من الزمن ، وربما كان تنديداً من نوع آخر ، ولذين يتناولون غذاءهم فى هذه الفترة من الأذرة ؛ لكثرتها إذ ذاك ؛ ولعلهم كانوا يدافعون عن أنفسهم حينما سمو الفترة السابقة لهاتين بـ « أكتوبر » أى « أخت بُر » ؛ وربما اقتصر البعض أن يكون البرغذاء للضيوف فقط ؛ كما هو شائع فى الريف . .

وقد كان من ذلك لفظ « برمودة » من « بر » ، « مَوْدَّة » . وربما كان من الأخير لفظ « موضة » أى حديث . وربما كان منهما « Moudern » أو « Moder » .

« ودقديانوس » : من « دق » ، « اليد » أى « باليد » ، « يا » ومن الأخيرين كان لفظ « ليديا » إسم مقاطعة لشعب إسرائيل خلف الحثيين على آسيا الصغرى . وبما كانت تؤخذ من موائمه جمائل البر الواردة من مصر لتوزع فى روما . ثم « no » والمعنى الجملى « لا سَبَل يدق لليديا ؛ بل يدق لأهله » . ومن ذلك كانت التسمية عندنا بـ « دقهلية » ، « دقادوس » . « دَيْن » : من « دن » اسم صاحب مصر وصديق يوسف . وقد توسطته الياء ليتخذ قديما تسمية لمقدار من الوزن ؛ ثم سميت به حقوق مستحقة . وحين استعمل السكى بالنار ؛ لتأديتها كان منه « دينار » . أما الدرهم فن . درّة » ، « هم » أو « غم » أى الدرّة غم . أو إرغام ؛ لأداء الحقوق . ثم صار اسما لهذا القدر من النقود ؛ ويعرف فى اليونانية بلفظ « درّاخمة » .

من هذا نرى أنهم كانوا يسيرون فى بناء اللغة على دلالات حرفية لا تقف عند بناء لأب . أو ميم لأم ، وأنهم كانوا يتدرجون فى معانيهم من كلّى إلى جزئى ؛ وكثيرا ما كان يصل اللفظ ، أو التعبير مع هذه الطريقة إلى تضخم بالحروف ؛ وعدم انسجام فى النطق .

وحينما هاجر الفينيقيون إلى الشمال ؛ وانقطعت بهم العودة كانوا قد أخذوا معهم الكثير من هذه التراكيب ، وبنوا عليه الأصل اللاتينى ؛ الذى تفرعت عنه اللغات الأوربية فيما بعد ؛ لذلك غلب على معظمها السماع ، وامتثلت
(٧ — البعث)

ألفاظها بالأحرف ، والمقاطع المبتورة في معنى . أو نطق . وحينما قام النبط بتحليل الألفاظ ؛ لتطابق تجزيئاً في المعنى كان الفينيقيون بعيدين عن هذا التجديد .

و حينما أوتر التعبير بدلالات مقطعية ؛ كنتيجة لهذا النهوض شاعت التسمية بالإضافة ، والتركيب المزجي ، والمثل السائر ؛ كما في « كيليو بطره » أي « كيل كثير ، و بطر نعمة من الرعية » . ثم « كيليو منيس ^(١) » أي « قد صُودق على العطايا ، أو الدخل بكيل كبير وصغير » . أي « من وكيلة » ، وقد سمي به رئيس مالية مصر في عهد الإغريق . ثم « كرا كلا » اسماً لأحد أباطرة الرومان . أي « حتى كَرىُ الترع فكلًا » وكان ذلك قد أهمل في عهده ؛ حتى ساء المحصول الزراعي ؛ وكانوا يتخذون اسمه للتنكيت به ، والتشهير بضعفه في مجتمعاتهم . وأما « أوردن » و « أوردشير » فردودينية ، وتعاليم خيرة ، أو بين خير وشر . وأما « كليلة ودمنة » عنوانا . أو تسمية فردية . فدوامنا كدوام ليلة وفناؤنا كفناء دمنة ؛ وهو تعبير يطابق نظريات الهنود في معنى الحياة ؛ كما في قوله تعالى : « إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ، وَنَحْيَى ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » كما يتفق مع عقليتهم في تحديد زمنى . أو عددى في مثل سبع ، أو شهر با ، أو شهر زاد .

هذا ولقد استطاعت اللغة العربية أن ترقى بفضل الأنباط ؛ وتكون لها ثروة في اللفظ ، وأجرومية في التعبير بفصل كثير من الأحرف ، والمقاطع ؛ لتكون أدوات استفهام . أو نفى . أو أسماء إشارة ... الخ . أو لترفق بالألفاظ في حالات مخصوصة ؛ كنقلها من أفراد إلى جمع مع الواو فقط . أو الواو والنون وكما في تبنية أو إلحاق بضمير . أما لاتينية ، أو انجليزية ، أو عبرية ، فقد بقيت

(١) المقطع « يس » في كيليو منيس يضاف كثيرا إلى الأعلام الأجنبية ومعناه في الأصل — كثير من الأسر الكبيرة ؛ والتي يحكمها أفراد ذوو شأن تؤيد الملك ؛ وتناصره .

ألفاظها مع هذه الأحرف والمقاطع دون أن يعرف لها أساس ترد إليه (١).
 وحينما سيطر الإغريق على الحياة العلمية في الشرق كثر استعمال حرف
 « الطاء » . وظهر كثيراً في مثل « قيراط » ، و « أبيقراط » . وقد امتازت
 به لغة ، أو نهضة طبية عرفت لذلك العهد ؛ وكانت تنتجع للصوفية ،
 أو المتمسكين بزهد ، وتكشف طريقة أخرى في الحياة ؛ ليصح الجسم بالتغذية
 وينمو على بسطة في العيش . وقد انتجت هذه النهضة دولة حملت لواء
 الطب الغذائي حول دجلة ، والفرات بعد تفرق الإغريق ؛ ودام لها الأمر
 أكثر من أربع مائة سنة ؛ وقد عرفت بالدولة الباراذية ، أو البارانية ، أو البرطية
 وعُرفَ ملوكها بأسماء تقرب لغةً من قطع الخبز ، وهشم الثريد ؛ وربما كانوا
 في ذلك على عهد مع الهاشمية في إكرام ضيف أو إغاثة جوعان ..

(١) هذا الموضوع اللغوي أريد به الإرشاد فقط إلى كيفية الربط بين اللغات على نحو
 ما بينت . وإليك زيادة على ما سبق توضيح لبعض كلمات وتعابير : فمثلاً : —
 « إنجيل » : أى الآن قد جاء إيل أو قرب أن ينزل على الإنسانية بآياته . وحين
 أضيف إليه المقطع « يس أو يش أو ير » كانت كلمة إنجيليز . . . الخ .
 « كومبليت » : أى السكم والعدد أصبح بليت أو مع تمن ؛ إذا أريد له زيادة . وهى
 من « كم » ، « الباء » ، « ليت » .
 « صالون » : وهى من « سولون » اسم المشرع الإغريق ؛ إذ كان قد اكتسب لونا
 جديدا لبشرته من الغذاء المصرى بعد أن كان شاحب الوجه من تصوف درج عليه بعض
 الإغريق . والمعنى : انظر . أو اطلب لنفسك لونا آخر بالحلاقة . أو الغذاء .
 « نوت » فى الإنجليزية بمعنى مذكرة : منه عندنا « نوته » والتسمية مأخوذة من
 النوتى « ربان السفينة » وهى من ألقاظ الفينيقيين ؛ إذ كانوا يدونون معارفهم التى
 يأخذونها من الشرق فى مثل هذه المذكرات . كذا لفظ « ليصا » بمعنى حيرة من
 لاص يلوص . وهو كذلك فى الإنجليزية ولكن مع تاء التأنيث المفتوحة كما فى « جوزويت »
 « جون » بمعنى إصابة الهدف مأخوذ من الجون « الفرس الأسود » . والمناسبة ظاهرة
 « كورب » فى الفرنسية بمعنى انعطاف أو انحناء مأخوذ من « قرب يقرب » ؛ إذ السائر
 بعد شوطه فى السير ينعطف عند ما يقرب من منزله أو حانوته . . . الخ .

وقد كان هؤلاء يمدون كثيرا من مدن القرات بغلال المصريين ؛ حتى غلب على البعض تسمية مصرية . وقد عرفت بذلك مقاطعة سميت « آدمينا » أى « آدم مينا » . ثم عرفت بعد . . . بالرها ، ونصيبين . أى « الرخاء ونصيب ونصيب » ومن « مينا » كان « ميناء » أو « مان يمون » ومن بارانية ، كان فى العامية « بَرْنِيَّة » . « لَوَعَاء من الخرف » وفى الأجنبية « بار » ثم « بورت » .

وقد عرفت لذك لغة هيراطيقية بدل هيروغليفية ؛ وكلا التسميتين تقرب من عربية أو عامية . أى « الخير فى غلاف ، أو طاقة » ؛ إذ كانوا يحفظون مستنداتهم العلمية فى لفائف العائم ، ومنها كانت الطاقة للقدرة « وطاقة من دبلان » ، ثم أنطاكية بتخفيف . أو على الأصل . وأما المقطع « أن » فللوقت . هذا وربما أريد بذلك حفظ المعرفة ، وبقايا العلوم بعد عبث الآشوريين بالتدوين ، والذى استمر فى نفسيات البعض ؛ حتى هدمت به مكتبة الاسكندرية ذلك الحادث الذى اتهم به عمر على غير قصد .

رابطة في العقيدة

لقد وضعنا كيف كان بناء . أو تكوين للعقيدة . ووقفنا فيه عند « أمون » أو « آشور » أو « إيل » ، وقد بقيت هذه العقائد ، أو هذه النواحي في العقيدة على صلة . تمتد هذه تلك بفكرة . أو رأى ، وتوازن أخرى بين ناحيتين في عرف ديني ، أو نظام عمراني ؛ حتى آتت كل عقيدة ثمرتها في دين ، أو معرفة ، أو حضارة .

إن الله سبحانه ما كان يقصد من عبادة حول هذه العقائد إلا تمسكا بالماضي ، أو الأرقى منه ؛ ليُبْنَى عليه جديد ، وإنه كثيرا ما كان يتركها للرؤساء وزعماء القبائل ؛ ليكونوا بها شخصياتهم ، ويبنوا عليها رياستهم ، ولكن ما لبث أن اعتقد المصريون ، أو عامتهم ألوهية لرئيس ، أو في رئيس ، لنجاح سحر على يده ، أو يد أعوانه ، وسرعان ما تعددت آلهتهم ، أو رؤساؤهم ؛ حتى أصبح للجنابة إله أو رئيس ، وحتى أصبح الأمر في حاجة إلى تعديل ؛ يفتقوا به في عبادتهم عند أمون .

إنه سبحانه ما كان يقصد من هذه العبادة إلا توحيدا في الرئاسة لكل أمة ؛ حتى يُستطاع عند رقيها الفكري نقلها من فردية في الرئاسة إلى فردية أو توحيد في السماء ، ولكن سرعان ما انتقل المصريون من « بتاح » إلى « أمون » أو « رع » أو « أوزوريس » ، أو جمعوا في عبادتهم بين ثلاثة أو اثنين .

لقد كان كفى للمصريين أن يفتقوا في عبادتهم عند أمون ، ولو أنهم

وقفوا عنده لسانهم لم حضارتهم، واستطاعوا معه أن يبنوها على شيء من الفلسفة والعلوم العقلية .

إنه سبحانه كان يخشى أن تُبنى عقلياتهم على خطأ في فهم معنى رئاسة في سياسة . أو دين ؛ حتى لا تتطاحن عقلية بعقلية ، أو تشور جماعة ضد جماعة ، وحتى لا تتكون بذور سيئة في الدين أو في النفوس ، يصعب على الأنبياء اجتثاثها في عصر انتقالي للعبادة ، وحتى لا تؤدي بهم إلى إشراك ، أو تجهم لسياسة من السماء ؛ لهذا ، أو غير هذا وقع المصريون تحت ضغط من الهكسوس ، وغير الهكسوس ؛ حتى صدق عليهم قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ؛ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » .

لقد بقي الأمر على فوضى في العبادة عند المصريين ؛ حتى بعد الهكسوس وبين صحب الحياة ، وفي تلك الآونة من التاريخ . أى « في عهد تحتمس الثالث » تنبهوا إلى ما كانوا عليه من خطأ ، أو أرادوا أن يأخذوا شيئاً عن آشور ؛ فنشأت بينهم فكرة ميلاد ، وتطلع لجد من بنوة ، ولكنهم ما أرادوه من مستقبل ؛ كما أراد آشور ، وإنما قصروها على الحاضر فقط ؛ ولأمون . دون غيره من معبودات ؛ لتستند عليه وحده نظريتهم في عودة الروح وقد نسجوا ذلك في قصة سموها « الميلاد السماوى » وكان صاحب هذا الميلاد تحتمس الثالث . وقد انتقل إليهم هذا التقليد الدينى مع الفينيقيين عن طريق التجارة ، وثبتت دعائمه في عهد الملكة حتشبثوت^(١) .

حينئذ استطاع أمون أن يقاسم آشور غنيمة في سياسة أو عقيدة ، واستطاع

(١) « حتشبثوت » من هيت ، شب ، وثواء أخت ؛ إذ كانت « الحاء » تقوم مقام الهاء كما في « حاتور » و « جرحور » .

بعض المصريين أن يعرفوا شيئاً عن التوحيد في عهد إخناتون .
ولقد جاء موسى على قدرٍ ، وأراد بالقوم نقلة عاجلة ، أو كاملة إلى معبود
واحد . هو الله ؛ كما أراد أن ينقل العبادة له سبحانه من إنسان . أو رئيس .
عند ما أريد عليها من السماء ، وعند ما خوطب في هذا الشأن بقوله تعالى :
« فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ . يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ . فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ . إِنَّكَ بِالْوَادِي
الْمَقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ . فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا .
فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ . أَكَادُ أُخْفِيهَا ؛ لِتُجْزَى
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » .

ولقد كُتِبَ له في ألواح ، ومدونات كل شيء عن هذه المعبودات ،
ولكنه حينما كلمه ربه بصوت في كلمات ، وأحرفٍ فهم . أو فهم بنو إسرائيل
معه أنه إنسان . أو شبيه بإنسان ، وتحت تأثير من قومه قال : « رَبِّ أَرِنِي
أَنْظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ : لَنْ تَرَانِي ، وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ . فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ
فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا . وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا » .
لقد كان ذلك عقاباً لموسى وأخيه ، وكان فيه ما يكفي أن يرتدع به
بنو إسرائيل عن فكرة التشبيه ، ولكنهم مالبثوا بعدها أن عادوا إلى نصوص
إبراهيم في شأن آشور ، وما لبثوا أن أرادوا ييهوا . أو يهوذا ذلك الإنسان ،
أو المعبود المنتظر الذي يبشر به إبراهيم .

حينئذ دبَّ خُلفٌ بين علماء بني إسرائيل . انقسمت به مملكتهم إلى
واحدة في الشمال « شام » وأخرى في الجنوب « فلسطين »

ولقد كان نجاح سحر من شيطان في الشكل الذي اعتبر به فتناً في الدين

مما عاد به القوم إلى فكرة تشبيه الله بإنسان ، ومما جعل العامة يتمسكون به على أنه إنسان ، وإنهم ما وقفوا في خلفهم عند هذا . بل قالوا ، أو قال البعض إن آشور ليس بمولود ؛ بل يجب أن يكون زوجا ، أو بعلا يدعى لزوجته ؛ فيسدل على أسرتها شيئا من نعيم الحياة ، وأن الحياة ليست زهداً . أو تقشفا تنادى به مملكة الجنوب .

ولقد استطاعت مملكة الجنوب أن تنال من مملكة الشمال ؛ لأنها تخالف إبراهيم ، وأن إبراهيم ما أراد بأشور أن يكون زوجا مزعوماً تنادى به هذه المملكة . قال تعالى : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا ؛ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . اللَّهُ رَبُّكُمْ . وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ » .

وحين أخذها الضعف تفرقوا مع الحثيين ، أو آثروا البقاء على دخل ومواربة في العقيدة ، والسياسة بين مصر وآشور . ولما اشتد النزاع حول العقائد وعاق بعض الساسة وازع ديني عن التوسع في ملكية تنازل كلٌّ لأخيه عن شيء من اعترافه الديني ؛ ليعيش في أمن ؛ أو يعيش على حساب آخرين . ولقد ساد الجميع تسامح ديني . ولكنه كان ريثاً يُتِمُّ نَبِيَّ رِسالته بين بني إسرائيل ؛ ثم يعود الأمر إلى أشد مما كان عليه .

هذا وقد أعقب زواج ؛ أو رغبة في زواج ؛ يصلوا به إلى آشور ، أو إليه منتظر نسلا ؛ أو زيادة في الذرية غلبت عليها الأنوثة ؛ مما جعل أهل الشمال يتمسكون بالدعاء أولاً لبعل . وما زالوا ينحدرون وراء الحثيين في طلب العيش يحملون هذه المبادئ الزوجية ؛ التي صبغوا بها الحياة الأوربية في كل عصر ؛ والتي جعلتهم جميعاً بعدُ . . . يتحللون من كل نظام ديني في مصاهرة أو اختلاط جنسي .

أما في الجنوب فقد استطاع القوم أن يوجدوا نظاماً سموه رهبانية ؛ وأعدوا له نظماً ، وتعاليم أشبه بنظم المدارس ، وتعاليمها . ولكنه ماصح ؛ ولن يصح ؛ كنظام دائم في الدين ؛ إذ هو تعطيل ، أو توقيف لسير الحياة ، وينتهي حتماً بفناء النوع . أو الجنس . ولو أنه اتبع ؛ كنظام توقيتي ؛ ريثما يتم إصلاح أو تجديد لأجدي على الإنسانية ؛ ولأمكنهم أن يطابقوا به بين حياة وحياة في أزمة زواج ، أو عند انتشار فساد .

قال تعالى : « وَفَقَيْنَا بَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ . وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ . وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ، وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا . مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ؛ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

ولقد كان إحياء الموتى في عزير ، وغير عزير ، على يد سحرة أو علماء مما جعل القوم يتمسكون بمبدأ المصريين في عودة الروح . وعند ما ظهر المسيح قالوا : إن واحداً منهما هو آشور . أو الإشع . أو يسوع . أو إلياسين .

قال تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ : عَزِيزُ بْنُ اللَّهِ . وَقَالَتِ النَّصَارَى : الْمَسِيحُ بْنُ اللَّهِ . ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ؛ يُضَاهِيُونَ — يطابقون — بِهِ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ . قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ، وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَالْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ؛ وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

ولقد قالوا : إن واحداً منهما هو الذي سيغير أوضاع كل دين ؛ ليتبع بسعة

صدر من الجميع . ولعل ذلك كان بشارة أيضا بمحمد ^(١) ولكنهم قد أنكروها ، وأنكروا معها جزءاً من التوراة ، ووقفوا بها عند عزيز والمسيح .

قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ؛ إِذْ قَالُوا : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ . قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ . يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ . يُبَدُّونَهَا ؛ وَيُخْفُونَ كَثِيراً . »
وعندما فقدوا المسيح تلمسوا له عودة على نظام أمون ؛ مما جعل المسيحية من بين كهنته خيرعون ، وحسن ضيافة لانصار المسيح . وما زالوا يطوون إليهم القفار ؛ حتى سُموا « إيجبت » « Egypt » ^(٢) . أو « قبط » . الأول من جاب يجوب . والثاني من « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » . تهويناً للمسافة .

هذا ما أعقبته فكرة آشور « آخور » بين العامة . عند المصريين ، وبني إسرائيل . أما الخاصة فقد كانوا ينتظرون تأويله بين نبي و نبي ؛ استناداً على ما تحمله كل رسالة من تبشير بدين ؛ أو رأي جديد . ولكنهم كانوا كلما أنتجت لهم عقلية « ثروة » في تفكير . أو تكوين ألفاظ . أو انتقال بها من معنى إلى معنى جديد تناولوه بتخطيء . أو تحريف إبقاء على قديم . قال تعالى : « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ؛ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً . يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ؛ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ؛ فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاصْفَحْ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

(١) أقصد بذلك فكرة عموم الرسالة فقط .

(٢) لفظ « قبط » كلفظ « جوزويت » مما بقيت فيه التاء في الأصل اللاتيني ؛ في حين أنها انفصلت في اللغة العربية ؛ لتكون تاء فاعل أو تاء تأنيث . وربما تكون التسمية قد تنوعت باللقاب من « آب » .

هذا ... وإذا رجعنا إلى آشور مع الآشوريين وحدهم ؛ أو مع الآريين .
نجدهم قد أرادوا به فكرة خيالية عامة قال بها زرادشت ؛ وقسم لها الحياة .
بين خير وشر ؛ ووقف بجانب خير ؛ ليطارد به دشت الحياة في نسل لا يستحق
الذكر ، أو تعلق بأبوثة لا يأتي بخير ؛ وليبتعد بالوهية آشور عن التمسك به .
في ولادة ، ووضع كلا الناحيتين في تسمية من لفظ آشور بعد الاستغناء عن
الشين بهاء . فسمى خيرا بـ « آهورمازدا » . أى « إله معنوى . أو في غيبة
يزيد ، وفي نمو مع نمو العقل » . وسمى شرا بـ « أهرمان » . أى « سوء وقبح
لفكرة آشور ؛ إذا كان يأتي عن تعلق امرأة برجل » .

هذا . . . وما زالت فكرة خير تنمو ؛ حتى تركزت عليها الحياة العالمية
في كل قطر ؛ وحتى نمت في ظلها كثير من الملوك ، والقادة . أمثال شالمنزار
وسنخاريب .

أما في بطن الجزيرة فقد وقف العرب ، والينيون بعد صالح عند القدر
الأول من التوحيد الملموس من « إل » ؛ كما وقفوا به عند سبب واحد
أو سببين من السماء ؛ وإنه ما زال يحتاج إلى رقى في العقل ؛ ليأخذ ألقاً أوسع
في تفكير ؛ أو نصيباً أكبر في لفظ ؛ أو تعبير . وإنهم ما زالوا يختلطون بالحياة
على ضفاف الأنهار ؛ ويعودون معهم منها نصيب ؛ حتى كان للمانووية مناة
ولتعجيز ، أو ضياع أمل في مصاهرة ، أو إقامة ملكية ؛ أو نجاح فيهما .
« اللات » و « العزى » ؛ وحتى كان لبقية ثمود من بينها « صمودا » .
وإن ذلك كله كان يؤذن بدين جديد . يستخلص فكرة صحيحة . أو عامة
لمعنى إله .

قال تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ، وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ . وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَتَمَّ ، وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى . أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى . »

وعندما ظهر الإسلام ما كان للبعض أن يقف عند آشور . أو يهودا . أو أمون . أو يريد بهم . آهور ، وغزيرا ، والمسيح بعد أن صُوِّدَتْ فِكْرَةُ مُحَمَّدٍ فِي شَأْنِهِ سَبْحَانَهُ بِتَعْجِيزٍ ، وتهديد من السماء . . . إِنْ لَمْ يَتَخَلَّوْا عَنْهُ ؛ كإِنْسَانٍ . قال تعالى : « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ . قُلْ : إِي . وَرَبِّي . إِنَّهُ الْحَقُّ ، وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ . » « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ . وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . » « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ . وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . »

وحينما عاد آخرون إلى نصوص إبراهيم استطاع قرآن . أو كتاب سماوى أن يبرىء إبراهيم .

قال تعالى : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ -- أَى فِي شَأْنِهِ سَبْحَانَهُ -- مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا . نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ، وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا ، وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا ، وَأَنْفُسَكُمْ . ثُمَّ نَبْتَهِلْ ؛ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . »

فَإِنْ تَوَلَّوْا . فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ نَعَالُوا
إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا ، وَبَيْنَكُمْ . أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
شَيْئًا . وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ،
وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ
حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ — أَى فِيمَا وَقَعَ تَحْتَ مَشَاهِدَتِكُمْ — فَلِمَ تُحَاجُّونَ
فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ — أَى فِيمَا مَضَى مِنْ قِصَصٍ — وَاللَّهُ يَعْلَمُ ، وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا
مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ .
وَهَذَا النَّبِيُّ ؛ وَالَّذِينَ آمَنُوا . وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

هذا ... وإن تدرجاً في رقى عقلى ؛ أو نهوض فكري يستطيع أن يبرىء
إبراهيم ، أو يحتمل عن أنصاره ، وخلفائه مسئولية ؛ إذا عجزت اللغة أن تكون
أداة تفاهم بين الجميع .

هذا هو شأن الثلاثة الآلهة الذين سيطروا على العقلية قبيل الإسلام .
أما أمون فقد ضاع في قرابة بين كهنته وأنصار المسيح . وأما آهور فقد سيطر
على المسيحية . أولها في ربوع أوربا في فكرة خير وشر . أو ما بين عقل ودين .
وعندما أخذت تعاليم الإسلام في الانتشار أخذ الأوربيون يعدلون
مواقفهم في الدين ، ويتدرجون في تنازله من ألوهية . أو بنوة لألوهية للمسيح .
ما يهودية . أو إسرائيلية فما كان لها بعد هذا أن تقف عند يهودا . أو عزيز .
ولقد لحق كل نبي بالرفيق الأعلى ؛ وفي الجراب بقية . وإن نصاً في شريعة

إبراهيم لأشور له مثيل في الإسلام . وإن آشور ؛ كإنسان يجمع الناس على دين واحد هو ذلك الداعي الذي يبشر به القرآن . قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ؛ لَا عِوَجَ لَهُ . وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ، فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا نَهْمًا » .

إن علوما ، ونظم تربية عند بعث محمد ، وبعده لم تستطع أن تخلق آشور وإن آشور لن يكون إلا بعد أن تستقصى الإنسانية كل معرفة ؛ وحتى لا يكون هناك علم يطويه غيب . وإنه ؛ كإنسان غير مسئول لن يكون إلا ؛ كنتيجة لنجاح تجاربها في التربية ، والسياسة على نظام المسئولية بشكل عام .

قد يبدو عسيرا على الإنسان أن يخلق من نفسه رجلا غير مسئول . أو بمعنى آخر غير معاقب . أو ملام على شيء رآه أن يترك ! أو يؤجل إلى حين ! ولكنه يستطيعه ؛ إذا حدد لنفسه واجبا ، وفهمه ؛ وقام به على النحو الذي سيطلب منه ؛ بحيث يستطيع أن يفهم سائله ، ويقدره ، وبحيث يستطيع أن يقدم عذرا مقبولا فيما تركه ، ويرتبط بواجبه .

هذا فيما بين الإنسان وأخيه الإنسان . أو فيما بينه وبين رئيس لا يعاونه بكثير . أما فيما بينه وبين ربه . أو فيما بين أمير ووزير ، فقد تعثرت فيه السياسة بعد محمد ، وما زالت تتخبط فيه حتى اليوم ، وإنه ؛ كنهج أو إرشاد إلهي ما نجح فيه إلا أمة^(١) واحدة ، ولعل ذلك النجاح كان ؛ كنتيجة لتجارب الإنسانية عامة في شئون السياسة .

(١) هذه الأمة هم الانجليز . وهذا النجاح ؛ وإن تحقق مع خطأ في مبدأ الفصل التام بين السلطات الثلاث فإنما يرجع إلى أنهم كانوا يعتمدون على الثقة بأنفسهم أكثر من اعتمادهم على مراسيم ، وقوانين . هذا إلى أنها أمة أمانها محققة .

ولقد عجز المسلمون عن تحديد الواجب . أو تحديد الموقف بعد مقتل عثمان ؛ فخرج البعض يطالب بدم عثمان ، وماذا تجدى عليهم مطالبة بدم عثمان . وهم على أبواب جهاد عام .

إننا لا نرى لوماً على عليّ بن أبي طالب حين آثر على ذلك جهاداً في سبيل الله ؛ كما لا نرى لوماً على السياسة من بعده ؛ إذا داهن فيها معاوية ما دام قد أدى بها خدمة لصالح الإسلام .

إننا في الواقع لا نستطيع أن نخلق من أنفسنا رجالاً مسؤولين . أو غير مسؤولين إلا إذا حدد كل منا واجبه ؛ كمبدأ يقف عنده ، ويكون به شخصيته ، وإننا لا نستطيع ذلك . وسياسة الأمة تسير على نمط تتلاشى فيه المسؤولية .

إننا إما أن نشق بأنفسنا كساسة ، وإما أن نشق بأنفسنا كنواب عن الأمة ، وجمع بين الثقتين لحزب واحد لا يؤيده برهان ؛ بل يسير على نقيض ما ينادى به علماء التربية من وجوب الفصل بين قوى الأمة في سلطاتها الثلاث هذا خطأنا في السياسة . خطأ لأنه لا يدوم به الحكم لكل وزارة إلا بضعة أشهر ، وخطأ لأنه تضييع به هيئة . أو استقرار نرجوه لنيابة الأمة .

إن المستقبل سيتطلب من كل هيئة ، وكل جماعة تحديداً للموقف ، وتحديداً للواجب ، وثقة بالنفس ؛ لتعتمد عليها أكثر ما تعتمد على مراسيم وقوانين . ألا وإن دقائق الماضي ستنتثر ، وسينال كل فريق من فريق ، وبالقدر الذي اقترفت به الآثام ، وإن آشور . أو ذلك الداعى سيكون غير مسئول .

هذا ... وإن آشور لن يبعث إلا من الأرض ، ومن بين الخلاصة الصالحة والأخيرة من الخلق . أما إرشاده فسيكون عن إرسال من العقل يهتدى به من

على الأرض ، أو على ظهور الكواكب . قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ — أَى يَقُومَ ، ويعدل ما فيهما من مخلوقات — ، ثُمَّ
إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

وبعد .. فلعله يكون هناك داع آخر ينادى بنجث الإنسانية ، وما كانت
عليه من منكر ؛ ليهي^١ له طريقا إلى الفناء عن طريق التنديد والتبكيث ،
ووسط هذا يستطيع الإنسان أن يكون له شخصية^(١) أو لا يستطيع . قال تعالى :
« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ : خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ . يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ^(٢) كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِيَ يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ » .

(١) عند نجاح الاستطاعة يتحقق قوله تعالى : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ » . وعنده
أم الكتاب .

(٢) خروج الناس من الأجداث عند البعث لا يراد به الخروج من قبور الدنيا ؛
بل من مواطن الإحياء على ظهور الكواكب .

نشأة الأدب ومبادئ الاجتماع^(١)

لقد فاتنا أن نذكر شيئاً عن الأثر العلمي الذي أحدثته قبائل « الكاش شو » أو تناولوه من حيث أنه بداية أفكار ومعاني دارت حولها الأشعار ، أو كيف خطا بالعقلية إلى وجهة أدبية ، أو كيف خطا بالحياة من لهو ومجون إلى جدٍّ وبعد نظر .

لقد كان الإنسان الأول كثيراً ما تغلبه شهواته ، وكثيراً ما كان يقع بسببها في حيرة من أمره ، وكثيراً ما كان ينتهي به إسرافه إلى فقر وعيلة . أو كسل وإثرة أو إثارة زهدٍ وتقشف على عمل وسعى وراء العيش . وكان عسيراً عليه . أو على ناحية مسئولة عنه أن تقيله من عثرته . أو تهيب له جواً علمياً تتعادل به رغائبه ؛ حتى تترن عقليته بين خير وشر . أو غنى وفقر . أو جدٍّ ولهو ، أو كسل وحب لسعي . أو تكون على استعداد دائماً لأن تسائر الحياة في جانبها الأرقى ، وحالتها التي تتمشى مع كل عصر . .

ولقد كان انهيار الأسر ، وتبلور القوميات ؛ كنتيجة لهذا العجز مما ورث النفس كثيراً من المعاني الروحية التي نمت عليها العقلية ؛ حتى كونت لها مذهباً في شعر . أو أدب . أو سياسة . أو اجتماع .

وعند ما امتزجت الحياة بمذاهب هذه القبائل كانت على حلفٍ في ذلك مع بنوّة إسماعيل ، وكانوا جميعاً يريدونها أخوةً ، ومقاسمة بين الجميع .

(١) لقد وضحت شيئاً عن هذه المبادئ ، وأريد بها هنا ناحيتها العلمية أو الروحية التي كانت مادة اللغة ، ومادة للأدب .

ولقد كان العرب أكثر ما يتجهون إلى ضفاف النيل . وكان كثيرا ما ينتقصهم فرعون ؛ ويردهم في خيبة أمل ، أو منه على عودة . وكانوا كلما عادوا . عادوا معهم نصيب فكري ، أو أدبي ، أو روحى يعيشون عليه ؛ ريثما يأتى وقت مناسب ، أو فرصة تسمح بعودة . وما زال هذا ديدنهم ؛ حتى غلب عليهم اسم عاد . أو لفظ « عاد » ؛ وحتى غلبت على ناحيتهم الأدبية مسحة غضب جعلتهم يجولون بالأدب كثيرا في مناجذة عدو ، أو مناشدة حماسة ، أو تلبية لنجدة ، أو كرم وحسن ضيافة .

أما في الشمال ، أو في أحضان هذه القبائل ؛ فقد غلبت عليه ناحية قصصية حيوان ، أو أسطورية لما مضى من حياة الإنسان . وكان ذلك كثيرا ما يغيب الآشوريين ؛ حتى دفعهم إلى اغتصاب الحياة ، أو الحضارة على ضفاف الفرات ؛ لينشروا فيها مبادئهم في السياسة ، وأحوال الاجتماع ؛ وليغفوا بها على حياة تؤثر شقاء من أجل نصيب من السحر . ولعل ذلك كان إيذانا ؛ لإدالة شعر ، وأدب من سحر .

قال تعالى : « وَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا — أَي شق علينا ؛ ليعود إلينا ما فقدناه من سحر — وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ . وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ » .

ولعل جنة فرعون أثرت في نفوسهم ؛ فأرادوها على غير النهج الصالح للأنبياء ، وقبل أن تقوم نظريات المبادئ ، والعلوم على أساس . ولعل الله أراد بهم شقاء من نوع آخر ؛ لتنمو في ظله أقصوصة تبكى الأطلال والديار . وأخرى تنشد مجداً على تجارب اختزلت ؛ وبأن ما كان فيها من غث للعيان . ولعل ذلك كان دعوة لهم ؛ لتحقيق ما وصلوا إليه من علوم .

قال تعالى : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ . فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا . إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

ولقد كان انقسام بنى إسرائيل في هذه المبادئ أو حول المعانى الأولى لأدبٍ وشعر مما كان يدفع إلى هجرات بدوية إلى فلسطين من ذريات موسى ؛ ومن كان قد استودعهم في « مَدْيَن » موطن أمومتهم من شعيب

. ولقد كان هؤلاء البدو على جانب عظيم من الزهد ؛ وراثته عن جدودهم . أو رعاية لمبادئ إبراهيم ، وكان كثيراً ما تميل بهم هذه المبادئ إلى رحمة ... أو تسامح ... أو رعاية لجار ... وغيرها من المعانى التى كانت توائى اللغة بمادة للخطابة والتأثير . ولعلمهم جميعاً حينذاك ، أوقبيل رسالة داود وسليمان وفى القرن العاشر قبل الميلاد قد عرفوا اللغة ؛ ولانت على ألسنتهم معانيها ، وفهموا مالها من أثر فى إقامة حجة ، أو توضيح برهان .

إن ذلك فى الواقع كان بداية صالحة تبشر بنهوض الأدب ؛ ليخلف سحراً ، أو عرافة ... الخ . فى التأثير على العامة لصالح فى دين ، أو فى سياسة . وحين شغل السحر جانباً من رسالة سليمان كانت النفوس قد ملته ، وأراد سليمان أن ينتهي فيه إلى رأى . قال تعالى : « وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ . وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ . وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ » .

وحين لحق سليمان بالرفيق الأعلى كان قد خلف الإنسانية فى نزاع حول مبدأين على تضاد . ترف ، وزهد . أو نعيم ، وتصوف . وحينما أحدث تصوف أو بذخ ردَّ فعلٍ فى النفوس أُوثرَ عمل اليد ، أو الكد وراء العيش ؛ وكان منه الشعب الاليدى ؛ الذى خلف الحثيين على آسيا الصغرى . أما فى أقصى الجنوب

أو في فلسطين فما زال علماء بنى إسرائيل يحتضنون العلم على تصوف ؛ وما زالوا يؤثرونه لبنينهم ؛ حتى رأيناه ماثلا في الأدب الصوفي^(١) الذي ورثه الإسلام عن هذه المدينيات . وحين نمتي غدهم . صاروا ؛ كأمة ، وعرفوا بالسريان ، واستطاعوا أن يحملوا لواء المعرفة مع المسلمين في ترجمة أو تأليف .

أما في الشمال الشرقي من دجلة إلى بخارى ، وسمرقند . فقد أخذ الأدب ناحية اجتماعية أخرى ؛ تسودها الفكاهة الموروثة عن السوماريين ؛ كما تسودها فكرة أشبه بالشيوعية ، وقد نشأت مع الميدين أصحاب الموائد العامة على قارعة الطريق . وبمصاهرات مع الأكاديين استطاعوا أن يبعدوها عن هزل ومجون ؛ كما استطاعوا أن يصبغوها بناحية جدية كانت دعامة لفنّي الموسيقى والغناء .

ولقد نشأت هذه الشعوب على هيئة قبائل . وكانت في حالتها الاجتماعية على ما نعرفه عن العرب في العصر الجاهلي ، وكان كما وصل إليهم فوج من العرب وجد منهم روحا طيبة ، وامتزاجا في المعيشة ؛ لما بينهما من تشابه فيها . أو لما كان بينهما قديما من أواصر في النسب ؛ إذ يعودون إلى نوح وإسماعيل .

ولقد نمت هذه القبائل على الفروسية ؛ واتخذتها وسيلة لسلب أو نهب ؛ على سبيل المجاملة للجيليين . ولقد كانوا كثيرا ما ينددون بسياسة آشور ؛ وكثيرا ما حالوا بينها وبين التقدم إلى سوريا . أو بنى إسرائيل . وكانوا كإخوانهم العرب على شيء عظيم من الاستقلال في الرأي ؛ مما أدى إلى وجود قومية أو مبدأ قومية في نفس كل قبيلة ؛ كما كانوا يكرهون الملكيات الكبيرة . في الثروة . أو السياسة ؛ فإذا رأته قبيلة أن تغتصب ، وتوزع على الفقراء . كبرث ،

(١) للأدب الصوفي إلمامة يمكن استخلاصها من الموضوعات السابقة .

ونمت ، وكان لها أنصار ، وإذا رأتها أخرى أن تغتصب ؛ لتعيش عليها .
مدَّت لها الموائد ، وأُلقيَتْ حولها الأغاني والأشعار ، وَضُرِبَ لها بالدفوف ؛
لتكون فيما بعد المزمار الأول لداود . ولقد نشأ عن هؤلاء وهؤلاء أمم صالحة
للحياة . تفهم كيف تُؤسَّسُ الممالك . وكيف تُوزَّعُ الثروة ؛ بحيث لا يُنسى
فيها فقير ؛ أو يُحرَّمُ منها ضعيف .

وقد ساعدت هذه الحياة المرححة على رقي اللغة ، ونمو الأدب . وما وافى
القرن الثامن قبل الميلاد ؛ حتى كان لهذه القبائل شأن في الحياة .

هذا وحينما أراد الميديون أن يطبقوا مبادئهم بشكل أوسع هجزوا ،
وضعت في أيديهم الثروة . وأخذوا ينددون بالليديين ؛ حتى كانت بينهما
حروب انتهت بضعف الميديين ، وتنازلهم عن ملكيتهم لقبيلة ، عرفت بالقبيلة
الإنشانية . أى « الإنشانية » حيث تركزت فيها المبادئ الإنسانية بشكل أعم .
وما زالت تنمو ؛ حتى كان منها الفرس قبل الميلاد وبعد الميلاد ، وما زالوا
يحتفظون بأنسابهم في الفترة التي أدلت منهم للإغريق ؛ حتى كان منهم
الساسانيون^(١) . بعد الميلاد . وهم في الواقع ذرية لإسماعيل . تخلفت في هذه
البقاع ؛ لتنتظر الإسلام ، والتدوين مع العباسيين .

هذه ناحية اجتماعية أشاد الفرس عليها ملكيتهم . وقد نمت في ظلها
كثير من المعاني الروحية ؛ حتى كانت قوميتهم أقرب إلى أدب منها إلى دين .

(١) لفظ ساسان هو لفظ إنسان بعد حذف المقطع التوقيى « أن » من أوله اكتفاء بالآخر
والاستعاضة عنه بسين ثانية لفرد ثان من أفراد القبيلة أمكنه أن يعيد إليها نجبها الأول
في فترة . أو وقت ثان . أى « بعد الميلاد » .

أما الميديون فقد هاجروا . أو هاجر البعض بمبادئه إلى أوربا عن طريق بحر قزوين^(١) وما زالوا يعيشون مع غيرهم على هذه المبادئ . ولو في فوضى اجتماعية ؛ حتى امتازت أخيرا إلى شيوعية واشتراكية .

وحين تخلف البعض كان قد تخلف ؛ ليرى رأيا ، أو ينتظر نتيجة ؛ إذا تنازل عن بعض من مبادئه ؛ ليستعوض عنه بشيء من عرف الليديين . فنشأت قومية عرفت بالأيديومية . وحينما أوتر آدم مع كد من قيراط أرض على سلب ونهب تحولت التسمية إلى ديموقراطية ، وما زال هذا رمزا للفلاح إلى اليوم . أو رمزا للعامة من كل شعب .

هذا . . . ولعل من الميديين أقواما لم يستطيعوا أن يؤمنوا بعيسى ؛ حتى ينزل عليهم مائدة من السماء .

هذا إلى قوميات أخرى يضيق بها الذكر . وحينما كان يشتد نزاع حول مبادئ قومية وأخرى كان المواييون يستطيعون بقوميتهم أن يوفقوا بين الجميع باسم توبة . أو رجعة إلى الحق . أو قدرة على تحلل من فكرة إلى فكرة وانتقال من رأي إلى رأي .

وحينما كان يأخذ النزاع شكلا علميا كانت ترافقه قومية . أو ناحية علمية أو سياسية تأخذ معنى جمهورية أي « جمع آهور » . وتتركز في فكرة خير وشر ولقد كانت هذه المبادئ سرعان ما تنتقل إلى الشعب الهيليني ، وسرعان ما كان يعرضها على بساط العقل ، وكثيرا ما كان يحاول تطبيقها على نفسه أو على شعوب مجاورة ؛ حتى نشأت عنها قوميات انتهت بالإغريق ثم الرومان .

(١) التسمية كان منها قز . أي حرير . ووين . أي « أين » .

ولقد كان تسامح ديني عُرِفَ به الفرس مما ساعدهم على التوسع في ملكياتهم على حساب قوميات مجاورة لهم ، وكان ذلك كثيرا ما يوغر صدر الإغريق ؛ حتى نشأت بينهما عداوة وحروب انتهت بفوز الإغريق .

وحينما وافى القرن الرابع قبل الميلاد . أوحين أخذت الإنسانية تُجدُّ فيه كانت هذه المبادئ . أو تلك القوميات قدامتازت إلى عقليات ثلاث . دينية في مصر . وأدبية في فارس . وعلمية . أو نظرية في اليونان . وحينما رجحت كفة الإغريق استطاعوا أن يمزجوا بين هذه العقليات ، مع تفوق في الأصل الموروث .

ولقد كان تردُّد علماء الموابين بين وطنيين أثناء نزاع بين فرس وإغريق أو فرس ورومان تردُّداً لنواحي المعرفة بين هؤلاء . وهؤلاء ، حتى أمكن للإغريق والرومان أن يأخذوا بنصيب وافر من أدب الفرس ، وحتى أمكن للمصريين أن يمزجوا تقاليدهم الدينية بفلسفة الإغريق .

أما ناحية دينية للشرق في إسرائيلية أو مسيحية فلم يعترف بها علماء الإغريق أو الرومان ؛ إذ كانت تسيطر عليها الأهواء ، وكثيرا ما كانوا يستعوضون عنها بهيام في أدب ، أو شعر ، أو تمثيل .

ولعل عقلية إغريقية لم تعترف بهذه الأديان . كانت ، وما زالت إرثا عن مصاهرات من الجبليين مع الحشيين ؛ حتى امتازت بها فرق الألمان ، وحتى أرادوا بها الحقيقة الواقعة عند ظهور الإسلام .

هذا وحينما كان يشتد نزاع بين فرس ورومان كانت تضع قوميات ، وتفنى جماعات . وكلما فنيت قومية أو جماعة قبعث معرفتها في قرية ، أو مدينة

أو مقاطعة ؛ لتكون إرثاً لجيل جديد . وما زالت هذه المعارف تنمو في شكل قروي ، أو مدني ، أو إقطاعي ؛ حتى رأيناها أخيراً في أمثال « بعلبك » و « أنطاكية » و « حوران » و « نصيبين » . وحتى رأيناها مع الإسلام في « بخارى » و « سمرقند » و « كرمان » أي « أهرمان » و « خراسان » أي « آشور . أو آخور ساسان » .

ولقد ضلت العقلية في الشرق عند ظهور المسيح . وبعده ، وحارت ! من أي نصيب تأخذ ؟ أو إلى أي جانب تميل ؟ .

إن سحراً ... فقد ضلت به العقلية ، وأخلف به البُظن ، وإن تصوفا ... فقد شقيت به العقول ، وهزلت به الأجسام ، وإن ترفاً ... فقد عجزت عن تحقيقه ميدية . أو ليدية ، وأرادته مابوية على غير نظام ، وإن معرفة ... فقد أريد لها لغة مواتية ، تبلغ من نفوس القوم ما كان يبلغه سحر ، أو عرافة ، أو تنجيم . وإن علوماً ... فقد انتقلت إلى ناحية لغوية ؛ لتأخذ معانيها تجزيثاً في حرف ، أو فعل أو اسم ظاهر ، أو ضمير ، أو تنويعاً ، بين قلة وكثرة ، أو بين أفراد وتثنية وجمع ... الخ .

حينئذٍ وجدت في اللغة مادة لعلمي المعاني والبيان ، وحينئذٍ كثرت في اللغة أحرف وأسماء استطاع بها الخروج بالتعبير إلى أكثر من معنى واحد ، وحينئذٍ وجد في اللغة ألفاظ بديعة تخرج بالمعنى ، وتصل به إلى التأثير في العقول أمثال : « لعل » و « بلى » و « ليت » ... الخ . وحينئذٍ أمكن للغة أن تدخلها تعبيرات ، كتشبيهات واستعارات . إذا قرأناها في المأثور من علم الفلك اعتبرناها خرافات ، ولكنها كانت بداية تشبيهات واستعارات ، وحينئذٍ استطاعت اللغة أن تستوعب كل ما حصلت عليه الإنسانية من معارف وعلوم .

ولقد كانت هذه الفترة في الواقع فترة انتقال للعقلية من شعوذة إلى تعلق بيقين ؛ كما كانت فترة اختزال للمعرفة ؛ ليجول بها الأدب في شعر وخطابة . هذا . . . وإن القوم ما زالوا يجهلون التأثير الخطابي ؛ حتى يكون للعرب نصيب من السياسة على ضفاف دجلة ، وفي ربوع الشام ، وإنهم ما زالوا يمهّدون للغة جديدة ، هي لغة العرب ، ولغة القرآن . وحينما جاء الإسلام لم يكن عسيرا عليه أن يختلط بهذه العقول . كما لم يكن عسيرا عليه أن يمتزج بهذه القوميات .

إن الإسلام ما كان دين أمة ، بل كان شريعة أمم ، وما جاء إلا بعد أن مهّد له سبيل إلى كل عقلية ، ووُجد له إشعاع في كل نفس . وإن حيرة وقع فيها القوم كانت تؤذن بهذا الدين الحنيف .

ولقد ضلت العقلية عند ظهور الإسلام في هذا الإرث من العلوم . هذا . . . وقوميات قد أصيبت معرفتها بركون قد عادت إلى شبه نهوض ؛ لتأخذ حظها معه ، ولكن بشكل آخر غير ما كانت عليه .

إننا نجد مع الإسلام أقواماً يرددون فكرة آشور على أنه المهدي المنتظر ، ويؤثرون به إماماً من ذرية محمد . وإن هؤلاء كان يحدوهم عبد الله بن سبأ . وإننا نجد مع الإسلام فكرة خير وشر « زرادشتية » تشغل حيزاً كبيراً من عقلية علماء المسلمين ، وينقسمون بها إلى فرق وأحزاب ، ولكنها لا تتدخل في أساس العقيدة ، بل تكتفي بنصيب اختياري من أفعال العباد ، أو تتمسك بوجوب فعل الأصلح على الله .

وإننا نجد للمواييين مع الإسلام فكرة رضاء بالقدر ، أو إرجاء له إلى

وإننا نجد مع الإسلام مرانا لحيوان يستطيع مسيامة ، وغير مسيامة من « زط » و « قرامطة » أن يأخذوا به من عرض الدنيا ما شاءوا ، وأن يؤثروا به على عقليات لم تهتد بعد . . . إلى نوع من الحياة .

ولقد استطاع الإسلام بين هذا الخلف العقلي أن يبنى له معرفة ، ويكون له علوما . كما استطاع بين هذا الشتات الاجتماعى أن يعيد مجد صالح وهود ، ولكن لبناء في الجسم ، وتدعيم في الحضارة ، وتكوين في العقيدة .

قال تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وَكُلُوا ، وَاشْرَبُوا ؛ وَلَا تُسْرِفُوا . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » . وفى أخرى يقول سبحانه : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا . فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .

ومع هذا فقد نمت بعض العقليات عند المسلمين على إرث من الماضى ؛ فى تصوف لا ينادى به القرآن ، وحين اشتد بهم الضيق السياسى فى عهد الأتراك عاد السحر معهم ، وتحول إلى طب أحجية ، وتعاويز من القرآن .

هذا . . . وحينما كان يؤثر زواج بالأم . أو الأخت كان ؛ لتركيز صفات الوراثية فى الذرية عن الأصول ^(١) . وحين حدد بواحدة ، أو أربع . كان لتسبق ذرية كل نبي عددها ، أو تقف عند ما وصلت إليه ؛ ولتحصل فى البقايا الصالحة تعادل فى العدد ؛ لتفاوت الزمن مع كل بعث .

(١) هذا إلى أن انتشار العقم قديما بين النساء ، كان لضعف النطفة عن تحمل جزء من الأفكار الصالحة ؛ التى تساعد على انتشار النسل . أو تسلسل الذرية .

وإننا بعد الإسلام نرى مصاهرات قد تقف عند موت الذرية ؛ قبل أن تبلغ سن المراهقة ، أو تسير مع عقيم ، أو تنتهى بالفشل ، وذلك فى الواقع يرجع إلى اختلاف الزوجين فى الأصول . أما إذا كانت فى سلالة نبى واحد ، وبين ذريته ؛ فإنها تتم على خير وفاق .

هذا ما رأيناه مع العباسيين . حين تمت المصاهرات بينهم وبين الفرس على خير وفاق ، وحين آتت تلك المصاهرات ثمرةً فى نشر علم . أو نجاح سياسة ، وعلى العكس من ذلك ما رأيناه منهم مع الأتراك ، أو من الأمويين مع سكان الأندلس ؛ إذ كانت السياسة معهما على اختلاف ، أو فى شقاق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

معنى الروح

لقد وضعنا كيف تدرجت الإنسانية في بناء معرفتها ، وتكوين علومها . وكيف استطاعت أن تبني حضارة يقرها العقل ، ويطمئن إليها التاريخ ؛ كما وضعنا في ذلك أثر كل رسالة ، وموضعها بين أحداثه .

ولقد كانت تغلب على هذه الرسائل الناحية الفنية . . . من عمران على الإنشاء والتعمير، وإمران على تنظيم المدن ، وتكوين الممالك ، وسياسة الشعوب . ولقد كان الزاد العلمي حتى بعث محمد في حاجة إلى تمحيص ، ولكن القدر الذي وصلت إليه الإنسانية منه وقت ذاك . كان بحيث يصح أن تتداوله الألسنة ، والأيدى بالقراءة والتدوين ، و بحيث يصح أن يأخذ له تسجيلا على صفحة السماء ، و بحيث يجب على البدو أن يصلوا فيه إلى شيء ؛ ليكون حياة ولغة لعصر جديد .

إن ذلك في الواقع كان موضع رسالة محمد إذ قال له ربه : « إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

ولقد كان محمد « صلى الله عليه وسلم » كثيرا ما يسؤل عن الروح ؛ ولكن حياة علمية إذ ذاك ما كانت على استعداد لتكوين الروح إلا أن تمحص ، وتحقق ، وتأخذ طريقها إلى الكمال في قراءة وتدوين .

ولقد خشى المصريون ، وعلماء المصريين على مذهبهم الديني في عودة

الروح . فكثير سؤالهم عنها ؛ ليطمئنوا إلى ما وصلوا إليه من عبادات ، ولكنه سبحانه كان يرجي الإجابة إلى يوم القيامة ؛ إذ سيتم تكوينها من علوم يتجلى بها ؛ كآية من آياته ، وكان يرفق بالإجابة قلة العلوم لذلك الحين . قال تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ؛ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

إن لله أمراً آخر بعد أمر محمد ، وإن له آيات سيتجلى بها يوم القيامة ؛ لتنال كل نفس معها نصيبها من المعرفة والعلوم ، ولكن مع كؤوس من العذاب ؛ سيتجرعها كل جاهل ومفرط ؛ وكل عالم ؛ وبالقدر الذي خفي عليه من هذه العلوم .

قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ . أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ . يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا ^(١) لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ . أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا . قُلْ : انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » .

إن عذاباً تهدد به هذه الآية لم يكن سوى مدِّ صور الإنسان في صفحة السماء بجزء قليل . أو كثير من الغازات المعدنية التي تنفجر منها النفس ، وتشتت من منها الروح ؛ لتعود بعد المحنة إلى جلاء . وإن زاداً علمياً صحيحاً سيناله الإنسان إنما هو تكوين فكري للروح يجب أن يقابله تكوين معدني لصورته على الأرض ، وصورته في صفحة السماء . وإن انتظاراً لتغذية تواتي المرء بهذا

(١) الإيمان : هو العلم بكل ما جاء به القرآن من علوم . وآداب . وسياسة . الخ . والعمل بها .

الجزء المعدنى لا يجدى فى مثل هذه الأوقات ؛ إذ سيستعد لصوم يتخلص به من خلاياه المريضة ؛ والتي بنيت على خطأ ؛ لينبئها من جديد على صحيح من المعرفة والعلوم . .

هذا . . . وتناول هذه العلوم بغير كتابة وقراءة لا يعتد به فى تكوين لروح . وقراءة وكتابة بغير اللغة العربية فى هذا التكوين لا يؤبه له ، ولا ينظر إليه يوم القيامة ، بل لا بد وأن يعود كل إنسان إلى فطرته ^(١) ؛ لتسجل عليها هذه العلوم . قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ . كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ . وَعَدًا عَلَيْنَا . إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » .

هذا . . . واقترب من زوجة سيمنع منه المرء يوم القيامة ؛ حتى يتخلص من أخطائه ، وإن الأمر فى ذلك سيقصر على مس خارجى ؛ إذ أن هذا الإفراز الغزى أخطاء يجب ألا تلقى فى الأرحام ، وفضلات يجب أن تلقى إلى الخارج بأى شكل . وقد كنى الله عن ذلك بقوله تعالى : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ، وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » .

هذا فى الواقع كناية عن السفور ، وتعميمه يوم القيامة . وكناية عن تعديل أساليب التربية ، وبنائها على الشعور بالجمال فى كل شيء ، والوصول به مع المرأة إلى أبعد غاياته عن طريق المدنية والتحضر . وكناية عن أخذ المرء بالشدة حينما يدعى مرة أخرى لصلاة أو سجود ينال به نصيبه من هذا الجمال فلا يستطيعه . ومع هذا فكبت للشهوة لا يعرفه يوم القيامة ^(٢) ؛ إذ يؤدى إلى اختقان

(١) عود الإنسان إلى الفطرة يكون برفع صورته ، وأوضاعه التى يعيش فيها من سمائه .
وحيث لا يشعر إلا بما يقع عليه نظره .
(٢) القيامة لغة من تقويم الخلق ، وتعديل الصور .

صور المرء ، وعجرفة الوجه ؛ لتوقف طاقته الجنسية . أو الكهربية عن التصريف ؛ فتزيد في احتراق صورته ، وهذا ما نلاحظه أيضاً على بعض فتياتنا اللاتي يزاولن المعرفة والعلوم . طالبات . أو معلمات .

هذا إلى أن هذا الإفراز الغرزي^(١) يخلقه غيره على حالة أنقى ؛ فيساعد على تجديد البشرة ، وتقويم الخلقة ، وينتهي بصور الإنسان إلى نور ينعكس على الوجه ، ويطابق حقيقة منه . هذا مع النظافة ، وتربية النفس على الفضائل كما يأمر به الدين ؛ ليستطيع أن يستبدل بأخطائه صحة في الجسم ، وصواباً في الرأي ، واعتدالاً في الخلق ، واتزاناً في العقل . أما استهلاك هذا الإفراز على غير نظام فعيلة في شبيبة ، وطفولة في ثوب رجولة .

وهذه الصورة التي يكونها المرء لنفسه ، ويعمل على تسجيلها في صفحة السماء ؛ ليتناولها الملائكة الأعلى بالتنقيح . هي روح الإنسان ، وهي على نوع من الحياة ؛ ولكن الإنسان لا يحيا معها حياة صحيحة إلا مع الجسم ؛ لتكون حياة واقعية . لها قصد ، ولها أثر . أما هذا القدر الذي هي عليه من الحياة فهو القدر الذي نشعر به في الأحلام .

هذا ... وكلما ارتقى الإنسان في أخلاقه وعاداته . وكلما أصاب الحقائق الفكرية ؛ كما يقرها العقل ، ويشرعها الدين ، كلما وصلت به روحه إلى حالة تقرب من الرؤيا الصالحة التي عرفت عن الأنبياء .

هذا ما سيكون عليه يوم القيامة ، ولهذا القصد قدر الله لهذا اليوم خمسين ألف سنة .

(١) هذا إلى أن هذا الإفراز يكون عند من يصل إلى درجة كبيرة من العقل والتفكير في حالة رقيقة ؛ لا يلبث أن يتطاير معها بعد دقائق .

قال تعالى : « سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ ^(١) لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ .
 مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ ، وَالرُّوحُ ^(٢) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
 مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا : إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ،
 وَنَرَاهُ قَرِيبًا : يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ^(٣) . وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ .
 وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيًّا . يُبْصَرُونَ ^(٤) .. الخ »

هذا ما ستبنى به الروح ، وسيعتمد الإنسان فيه على نفسه إلى أقصى حد
 وسيكون له وجه قبول من السماء عند ما تتخلى عنه الملائكة ؛ لتداوى
 الإنسانية نفسها بنفسها . قال تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ
 الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

أما ما يهدم من الروح فسيكون من نصيب الحيوان ، وسيحيا هذا
 الحيوان حياة صحيحة ؛ كتلك التي يحياها الإنسان ، وسيشاركه في كثير من
 أوضاعه ؛ ليستطيع أن يتقبل عنه أخطائه . قال تعالى : « وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ
 فِي الْأَرْضِ . وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ . مَا فَرَّطْنَا
 فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

هذا ... وكلام من الحيوان أمر لا بد منه ؛ ليستطيع أن يخلص مادون

(١) الكافرون : المغطي على أرواحهم ؛ لاختلاطها بأخطاء الحياة .

(٢) لا يراد هذه الروح روح القدس ، بل روح كل إنسان عندما تتخلى عنها الملائكة ؛
 ليصعدوا هم أيضا بأرواحهم إلى الله بعد هذا الجهاد .

(٣) المهل : ذوب منصهر من النحاس . وهو كناية عما ستكون عليه الأرواح من
 شدة في الحرارة .

(٤) يبصرونهم : أى يوجه كل إنسان إلى خطئته ؛ ليتخلص منه بأي شكل .

في الروح من أخطاء . وهذا أمر سيتحقق مع يوم القيامة ؛ كآية من آياته سبحانه . قال تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ ، تَكَلِّمُهُمْ ^(١) » أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » .

وسيتنوع الحيوان حسب تفاوت الأرواح . وربما كان الطير من نصيب العلماء ؛ ليستطيع أن يقتنص من أفكارهم ما يشاء ؛ ليزود بها الجملة ، والمتدرجين في المعرفة . وربما كان لكل إنسان بعد هذا الجهاد طائر ؛ ليرى مقدار ما يستطيع أن يرسله له من أفكار . قال تعالى « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ^(٢) » وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا ؛ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . إِقْرَأْ كِتَابَكَ : كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » .

وصور الإنسان تلك هي التي يقوم عليها الإحياء ، وتحقق بها الإماتة ؛ فإذا أريد له نقلة إلى الآخرة نقلت الملائكة هذه الصور بجميع أوضاعها ؛ التي كان عليها في الدنيا إلى الكواكب . عندئذ تغيب أوضاع الدنيا من فكره ، ويكون الموت . فإذا تجمع من هذه الصور عدد يستحق الإحياء أمطرت الكواكب بمطر خائر ^(٣) ؛ ثم سلطت عليه هذه الصور . وحينئذ تستطيع

(١) لا يراد لهذا الكلام أن يكون تام النطق ؛ بل سيكون على أي نحو ، وعلى نحو ما كان عليه الإنسان من عجرفة في صوته ؛ ليحصل به تطابق بين الصور . وربما اضطرت قوى السماء ؛ فتلقى عليه صوراً لحيوانه الذي سيتشبه به إن لم يسرع في التخلص من أخطائه .

(٢) هذا كناية عن ملازمته السمات الإنسان فقط ؛ ليحيط علماً بأفكاره ، وما يستطيعه من إرسال ؛ كنتيجة لحشيته ، وتوجهه إلى الله .

(٣) أي كثيف كاللين الرائب .

كل صورة . أو كل روح بما هي عليه من حرارة أن تجفف لها جسما يتقمصه .
الإنسان من هذه المياه .

وستتعرض الإنسانية لنوع من العقاب على نمط العقاب الطبيعي ؛ ليتخلص .
الإنسان مما كان يركن إليه من عادات ، وتقاليد لا تتفق مع ليونة ترجى .
للروح . وسيشارك كل نبي ذريته في جزء من هذا العذاب للتشجيع . فمن .
يحيا على أمل فليوطن نفسه على فقده ؛ حتى لا يموت حسرة عليه . ومن اعتاد .
سكنى القصور فليعود نفسه سكنى الأكواخ ، وفي جوف الصحارى ؛ لتزكو .
روحه على شيء من الصبر ، والجلد ، وقوة الاحتمال ؛ كما زكت بذلك أرواح
الأنبياء .

هذا ... وستتعدد الإماتة يوم القيامة ؛ لاختبار ما وصلت إليه الروح من .
تكوين علمي وخلقى . أما مدى هذا الاختبار فيكون ببقاء أجسام الموتى مدة
كبيرة من الزمن . دون أن تصاب بتحلل ، أو تعفن ؛ إذ تكون قد وصلت .
الروح إلى درجة من الحرارة ، بحيث تستطيع أن تبدد ما يحيط بالجسم من .
رطوبة ؛ وذلك قد نشاهدها في أجسام الأولياء بعد الموت ؛ ومن على علم
وحكمة من عظماء التاريخ .

وهذه الحرارة المعدنية للروح . هي التي ستكون عليها سرعة التثام
الجروح ، وسرعة الإبلال من المرض ؛ لتجفيفها ما يحيط بالأغصاب من .
فضلات دهنية ، أو مخاطية ؛ تقف بالجسم عن نموه الطبيعي .

وقدرة الإنسان على إرسال ربما نستطيعه . أو يستطيعه المستقبل ؛ على أنه .
لن يستطاع إلا إذا تخلصت الإنسانية من شوائب الحياة ؛ لتصل الروح إلى .

حالة تزكو معها هذه الصور . وليس يبعد عليها أن تصل إليه ، وقد عاشت عليه روحا من الزمن في سحر ، وعرافة ، وتنجيم ... الخ . ولكنه لن يكون بين إنس وجان ؛ بل بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ كمتيجة لوصوله بحضارته إلى الاعتراف بها من جان ، أو شيطان .

هذه الصور ، هي التي يراها الإنسان لصديقه في الأحلام ، وأثناء النوم . وليس عسيرا عليه أن يكونها لنفسه في خياله ؛ ليراه أثناء اليقظة ؛ كما يراها في أحلامه ، وهذا هو المثل الأعلى لتربية قوى الخيال عند الإنسان .

هذا إنما يكون بإجادة الخيال ، والتفكير في حياة يحياها هذا الصديق في بقعة ما ... من الأرض ؛ يكون هو أيضا قد شاهدها ، وعاينها ؛ ليوضح لها . صورا في مخيلته ؛ على أن ذلك لن يكون إلا بعد أن يدرس حياة صديقه العقلية ؛ ليستطيع أن يرسل إليه هذه الصور على ضوء منها ، هذا مع العزلة التامة ، والابتعاد عن صخب الحياة ، وتحت ظلام من الليل ، أو من سقف المنازل ؛ حتى لا تتلاشى هذه الصور في ضوء النهار .

هذا ما أتنبأ به لآشور ؛ ليستطيع أن يأخذ الإنسانية ، بتوجيه عام ؛ وإذا نجح فيه فهو نجاح للإنسانية في هذا النوع من الحياة .

ولقد رأيت على عفوٍ مثل هذه الصور . أثناء اليقظة ؛ وأنا مغمض العينين . وكان جفناي لها ؛ كشاشة بيضاء . وكان يغلب أن كانت صورا لعيد لم أره من مثيلا ؛ ولكنني لم أدر من أين كانت تأتيني هذه الصور .

ولقد ضللت الحياة بعدها حينما ؛ ولكنني لم أدر ... أضللتها عن الجان . أم كانت قد استبهوتني الشياطين .

ولقد احتفظت بقوى العقلية كما هي ، ولكن مع طارىء نسيان
فما كنت أشعر به من قبل .

و بعد . . . فيأيها الأخ السابق ؛ إذا فارقت الحياة ؛ فثق أنك ستحيا ؛
بعد ساعات ودقائق ؛ وثق أننا ، أوزرية منا . ستصل بسائلك في يوم من
الأيام . فإن كنت على علم ، وحكمة ؛ فجاوبنا بما تستطيع من أصدقاء الحياة .
على ضفاف الكواكب .

الحالات الفكرية وأثرها في الجهاز العصبي

لقد كان مما اعتدته عند غسل الوجه أن أجعل للصابون مسا؛ والتهابا في باطن جفني؛ وكنت كلما داومت على ذلك أرى لما يحيطني من أجواء برقا ولمعانا. وكنت عندما أكرر هذا؛ كنظام تعودته؛ أرى على غير قصد شررا لا يتجاوز حبة القمح؛ يخرج من فوق عيني.

ولقد حاولت كثيرا؛ لأرى كنه هذا النور؛ فكنت أستبدل بالصابون شيئا من عصارة الثوم؛ ليزداد التهاب الجفنين؛ ثم أغمض عيني بإصبعين؛ وأحلق بفكري إلى السماء؛ فأجد نقطا منها على جفني؛ ولكن في شكل ناصع؛ وبين هالات من نور^(١). حينئذ علمت أننا نعيش في ضوء آخر دونه ضوء النهار؛ وأن بحاسة البصر عندنا ضعفا، وقف بها عن رؤية هذا الضوء وأن هذا الضوء الذري الذي نعيش فيه. ما هو إلا مس بين هذا النور، وأشعة من الشمس، أو أشعة من البصر.

هذا النور الذي عجزت أبصارنا عن رؤيته، هو الإنتاج الكهربائي الذي ادخرته الإنسانية لنفسها منذ أجيال من السنين. وهو في الوقت نفسه الإنتاج الفكري الذي وصلت إليه؛ والخلاصة الصالحة التي استحققت أن تشغل حيزا من السماء.

(١) هذه النقطة تشبه ما تكونه بجمعه الضوء من أشعة الشمس على الورق. ولعل هذا من عمل عدسة العين؛ كمجموعة ضوء الكون.

هذا الإنتاج الكهربى . ليس من تكوين الطبيعة كما نفهمه على خطأ ؛ بل من تكوين الإنسان ؛ كنتيجة لشقائه ، وجهاده فى الحياة . وهو فى حد ذاته وحدة لا تتجزأ ؛ بخلاف ضوء الشمس . وكلما وصلت الإنسانية إلى إنتاج علمى ؛ أو روحى يمكن أن ترتبط به بأواصر من الرحمة ، والعدالة . كلما ساعد ذلك على تماسك هذا الإنتاج الكهربى . أما ما يخالف الحقائق الفكرية المرجوة للإنسانية ، فإنه يستنفذ فى الحروب ، ويأخذ له طريقا إلى الفناء ؛ كنتيجة للتخلص من شرور بدت من أمة أو جماعة ، أو كراحة يشعر الإنسان بها بعد أن يأخذ لنفسه بالثأر ، وهى فى كل ذلك أفكار تتألم منها النفس ، ويوخز بها الضمير ، وتجهد الأعصاب إن لم تأخذ لها هذا الطريق إلى الفناء

قد يبادر إلى الذهن أن هذا الإنتاج الفكرى ، أو الكهربى يحرق الجسم ؛ كما تحرق قصاصات الورق بالنار . والواقع أنه لا يحرق النفس منه إلا ما تتألم منه . هذا إلى أننا أجسام معزولة بما يحيط بنا ، وبأرواحنا من غازات رطبة كغاز النوشادر . أو تيارات هوائية تساعد على انتعاش الجسم .

ولقد كان دخل الإنسان الأول من هذا الإنتاج الفكرى ، أو الكهربى على غير نظام ، وكان كثيرا ما يعجز عن تلمس أسباب من الرحمة والعدالة ؛ فتثور نفسه ، ويتملكه الغضب ؛ فيأتى بإنتاج فكرى لا تحتمله السماء ؛ فيرمى فى وجهه ؛ ليحترق به فى صيحة ، أو رجفة ، أو صاعقة . قال تعالى : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ؛ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ . . . »

هذا . . . وكلما أدى الإنسان تجاربه فى زراعة . أو صناعة . أو تجارة .

أو تعليم . . . الخ . بحيث تأخذ صفة نجاح . استطاع أن يمدَّ صورهِ بها ؛
ليقتطف منها ما يشاء وقت الحاجة ؛ عن طريق التطابق بين الصور .
وحينئذٍ يستطيع أن يؤدي تجاربه في الحياة في يسر ، ومن غير تعب .

أما إذا تهاون في تأدية واجبه ؛ كتجارب تتطلبها الحياة ، ويتطلبها
المستقبل . فلا يزال يتعثّر فيها ؛ حتى تأخذ صفة تعديل على صفحة السماء .

قال تعالى : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ — أَى خيره — بِإِذْنِ رَبِّهِ .
وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا زَكِيًّا » .

والتطابق بين الصور في نبات . أو إنسان . أو حيوان هو ما يقصده
سبحانه ؛ لنجاح هذه التجارب ؛ حتى يستطيع سبحانه أن يتخلى عنها ؛ لترتفع
كل نفس بما كسبت . أو اكتسبت ؛ إذا أظهر يوم القيامة عجزاً في بعض
الأنفس بعد هذا الجهاد .

وهذا التطابق بعد أن تنتهى الإنسانية ؛ وإلى حد ما . . في تجاربها إلى
نجاح . هو الذى سيسير الحياة في جميع أوضاعها ، وهو الذى سيستغنى به سبحانه
عن توجيه قدرة جديدة إلى خلقه . فيغنى كل مغن . أو ممثل كيفما استطاع له
الغناء . أو التمثيل ؛ وبالشكل الذى يتقبله الذوق السليم . ويؤدي كل مدرس
واجبه في يسر ؛ وكيفما أرادت نظم التربية ، والتعليم . ويخرج كل صانع
صناعته بالشكل الذى لا تنتهى به إلى بوار . . هذا إلى ما يرجى من نجاح
لكل حرفة . أو مهنة .

قال تعالى : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ — أَى الشكل ، والهيكَل —
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا » .

أما هذا التطابق فلا أقلّ ولا أكثر ؛ لتوضيحه من غناء الحاكى بأقراصه
بعد ملئها بالأغاني والأناشيد . ومن ترديد الحياة في العقل ؛ وعلى أشربة
الخيالة ؛ ليعتمتع بها الجمهور . أو ليتناولها الملاء الأعلى بحكم أو تجريح .

هذه هي الحالات الفكرية ؛ كما نتاج ينعكس على الأعصاب ؛ فيأخذها
إلى انتباه ، وشعور بالحياة . أما كيف تتكون معه صور الحياة . أو كيف
يؤثر في الأعصاب تأثيرا طبييا . أو لاسلكيا فسأتناوله بشيء من التوضيح .

لقد حاولت كثيرا ؛ لأهتدى إلى الضوء الذرى الذى نعيش فيه ، ومقدار
اختراقه للأجسام ؛ فكنت أختفى تحت مياه الأنهار ؛ وفيما يقرب من
الشواطىء ؛ وفى نقط يكسوها الظل . أو تتسلط عليها أشعة الشمس .
وكنت أرغم نفسى على فتح جفنى فى باطن الماء ؛ فأرى ضوء الشمس ينير
القاع ؛ كما ينيره فى نقط تقرب من سطح الماء . وكنت أرى الظل يمتاز
بطبقاته فى الماء عن طبقات الضوء به .

لم أكتف بهذا . . ؛ بل كنت آخذ أواني معتمة ؛ فأملؤها بالماء ؛ ثم
أسلط إلى داخلها . من فتحات ضيقة شعاعا من ضوء البطاريات الصغيرة ؛
فأراه ينير الماء ، ويتسرب إلى جميع أجزائه .

حينئذ علمت أن هذا الضوء الذرى لا يحول دونه حائل . وحينئذ فهمت .

قوله تعالى : « أَيْنَمَا تَكُونُوا . يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ . وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ
مُشِيدَةٍ » ؛ كما استطعت أن أفهم قوله تعالى على لسان لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنِّي

إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ؛ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ^(١) أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ .
أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

ولقد قلت في نفسي أخيرا ؛ لو انتقلنا بسلاح الكشافات تحت الماء ؛
فربما نستطيع أن نعيش فترة بين أحيائه . أو نستطيع أن نتخذه ضد الغواصات ؛
فنخفف من ويلات الإنسانية في حروب قادمة .

هذا إلى أن الماء قد خفي علينا شأنه ؛ كجميع للصور . أو مجمع للضوء مع
ما يحمله من هذه الصور .

إننا في الواقع إذا نظرنا إلى جزء مظلل من الماء ؛ وفي مستوى سطحه .
نرى لنا صورة على سطحه . وهذه الصور قد نراها أيضا مع أجسام ذات لمعان .
أو في زجاج مظلل . وكلما زدنا في تظليل هذه الأجسام استطعنا أن نرى هذه
الصور بشكل أوضح .

هذا هو ما قام عليه اختراع المرايا ، وتلك هي أقصى ما وصلت إليه هذه
الأجسام ؛ لتجميع الصور من هذا الضوء ؛ لترى بوضوح . وعلى هذا الأسس
خلقت حاسة البصر ؛ لنرى ، ونبصر بها الأشياء .

إننا إذاً نستطيع أن نسائل أنفسنا . . . كيف نرى ، ونبصر الأشياء ؟ . .
فنجدها منها الجواب

(١) هذا إلى أن الصخور لها مع هذا الضوء صور كهربية استطاع بها من الملاء الأعلى
رؤية دقائقها ؛ كما استطاع بكشف الأشعة رؤية كسور العظام .

إن هذا هو وظيفة هذا الضوء ؛ إذ يتخلل مائية العين بما يحمله من صور يتخيلها الإنسان ؛ كما يتخلل طبقات الماء . ولكنه يتفاعل مع تكوينها المعدنى ؛ لتستمد منه هذه الصور شيئاً تصل به إلى وضوح .

هذا الضوء . أو هذه الصور إذا تجمع للعين منها جزء قامت العدسة بتجميعه خلف إنسانها ؛ فيلقى تظليلاً منه ؛ يصل به إلى الحالة التى تراه عليها فى المرايا ؛ لاسوداده . أو لقربه من الاسوداد ، وتحول مائية العين خلفه إلى ما يشبه سطوح المرايا .

فإذا أمكن للإنسان أن يمدّ هذه الصور بشيء من تفكيره ازداد تكوينها الكهربى ، واستعدت الأعصاب أن تحملها إلى فراغ من المخ ، وبين خلاياه ؛ لتلقى تظليلاً أكثر ، وتفاعلاً من أخيلته ، تصل به إلى صحة بعد خطإ . أو وضوح بعد إبهام ، وغموض .

هذا التظليل الذى يخلف إنسان العين يصل إلى أعصاب المخ على شكل مخروطى ، وعند نهايته تتضاءل هذه الصور ؛ كنتيجة . أو عمل لعدسة العين . وحينئذ تستطيع هذه الصور أن تنفذ مع هذا الضوء من منابت الشعر ، ومن أنابيبه ؛ لتتصل بصورة المرء الأساسية ؛ التى تسامته فى السماء .

هذه الصور الضئيلة هى التى يقوم عليها الانتباه ، والشعور بالحياة ، وإبصار المراتب ؛ كنتيجة لترددتها فى جو يشبه المرايا يعيش فيه الإنسان . أو تحيا فيه الروح .

هذا . . . وكلما كان الشعر فاحماً . أمكن أن يزيد هذه الصور وضوحاً ؛ ولهذا القصد كسيت الرؤوس به . وإن اختلفت ألوانه .

ولقد فكرت كثيرا في اللاسلكي ؛ كفن نستطيع أن نصل به إلى التصوير في يسر ، ومن غير تكاليف . فما وجدت له خيراً من نظرية تجميع الصور بالمرايا . وإذا كنا بها نرى ، ونبصر الأشياء فإننا لا نعجز عن أن نصل بها مع هذا الفن إلى التصوير .

إن ذلك لن يتجاوز تزويد كل جهاز استقبال باللمبة إضاءة عادية . كرية الشكل ؛ تطل من الخارج بطلاء أسود ؛ لتتحول من الداخل إلى مرايا . ثم صندوق بلورى . يحول من الداخل أيضا إلى مرايا ، ويزود أيضا من الداخل باللمبات إضاءة عادية ؛ من غير تلوين ، ويحتفظ بأحد جوانبه من غير تلوين أيضا ، ويظل بستارة مما تتخذ منه الأشرطة ؛ ليكون ؛ كشاشة بيضاء ؛ تنعكس عليها الصور ، وربما تحتاج هذه الشاشة إلى تظليل آخر ، وفي فراغ آخر .

هذا . . وإذا اتصلت هذه اللمبات بتيار كهربى واحد مع تيار الجهاز قامت الللمبة الكرية السوداء مقام إنسان العين ، وقام الصندوق البلورى مقام تجويف بين خلايا المخ ، وعظام الرأس ؛ لإحداث تظليل تتكون فيه الصور . وقام هذا التيار الكهربى مقام تفاعل بين إنسان العين وحبته . أز بينه وبين الأعصاب .

هذا هو الأساس الذى قام عليه فن التصوير بآلاته العادية ، وهو عين . ما توصل إليه الطب فى كشف الأشعة لكسور العظام . أما قدرة الإنسان على رؤية هذه الصور قبل أن تنتشر فى مائة العين فإن يكون إلا من السطح الخارجى للجفن ؛ وكنتيجة إرسال من صديق لصديق .

أما أجهزة الإرسال فتزود أيضا بمثل هذا الصندوق البلورى السابق .

شرحه . ولكن يستبدل بشاشته عدسة كبيرة ؛ ويتصل مع لمبته السوداء بمجموعة الصوت ؛ ويستغل ؛ كآلة دائمة لتصوير الحفلات ، ونقل الأفلام للأجهزة الاستقبال .

هذا ما أراه . وربما يؤدي هذا الغرض تغطية جدر حجرة الإذاعة بالمرايا ؛ وتزويدها بهذه اللمبات العادية ؛ في نفس المرايا ، وجمع أسلاكها إلى صندوق تظليل كبير ؛ لتتصل بلمبته السوداء ؛ في أى وضع مع مجموعة الصوت . هذا . . . وربما كان من الواجب تفريغ هذه الصناديق أيضا من الهواء . وربما كان بناء حجرة الإذاعة على نظام القباب مما يساعد على تجميع الصوت ، وعدم انتشاره ؛ وليكون له صدى في الأذن ؛ لتناسبه مع تكرور في العين . أو في الرأس . وهذا أمر قد شهدته ، ولاحظته في إذاعة صلاة الجمعة من جامع « محمد على الكبير » بالقلعة ، وقد امتاز بها دون غيره من الجوامع . وربما كان الارتفاع بحجرة الإذاعة إلى هذا العلو مما يساعد أيضا على تحقيق هذا الغرض .

وحرارة الأعصاب يستمدّها الإنسان من روحه ، ومن تفكير يتطابق به مع ما زوده بها من أخيلة .

هذه الحرارة لا يرى لها ضوء في أعصاب الجسم وإنما يرى ذلك في أعصاب الروح ؛ لذلك كانت الأعصاب أعقد من كفة حابل ؛ لتستطيع أن تدخر من الحرارة ما يكفي لغذاء الروح .

هذا أمر نلمسه في الآلات الكهربية . فالأسلاك ما دامت مستقيمة . فلا يظهر للتيارات الكهربية بها ضوء مهما زادت طاقتها . وإنما يكون ذلك إذا

كانت حارونية . أو أُفْرِغَ لها الهواء ؛ كما نرى ذلك في لمبات الإضاءة ،
والمدافئ ، والسخانات ؛ ولذلك أيضا كانت أعصاب المخ في اعوجاج . وفي
المخنيخ على التواء .

ولحرارة الأعصاب تأثير طَبِّي ؛ كنتيجة أخيرة لعمليات الهضم . ذلك أنها
تساعد على فناء ما يتخلف بالدم من فضلات مخاطية . أو دهنية . أو قريبة
منهما ؛ حتى لا تتشخم بها الأعصاب ، وتؤدي بالجسم إلى السمنة ؛ التي يفقد
معها حيويته .

وفناء هذه المواد يحتاج إلى إجابة تفكير . أو إجهاد في العمل ؛ لتخرج
مع العرق إلى ظاهر الجسم . أو لتحمل الأعصاب تصفية منها إلى النخاع
الشوكي ؛ لتفرز في الاختلاط الجنسي ؛ وحينئذ تكون قد جمعت معها جزءاً
من عصارة المخ ؛ يساعد على تحقيق النسل .

قال تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ
مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ ، وَالتَّرَائِبِ ^(١) . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ .
فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ »

هذه المواد يقول الطب فيها إنها كرات دموية بيضاء . والواقع غير ذلك ؛
إذ الدم لا يعرف إلا بلونه القرمزي . وكلما زادت فيه نسبة هذه المواد كان
الإنسان على فقر دم . أو على استعداد لمرض تزداد به حرارة الجسم ؛ لتأخذ
هذه المواد سيرها الطبيعي ؛ ولهذا يعلل الطب فناءها من الجسم بعد المرض ؛
وإن كان التعليل على خطأ في التقدير ؛ إذ يقول إنها هي التي تلتهم جراثيم
الأمراض وتنفى معها ؛ كنتيجة لهذا الصراع .

(١) الترائب : عظام الصدر .

ومما يساعد على فناء هذه المواد تناول المشروبات الساخنة على أنواعها المختلفة قبل تناول الطعام بمالا يقل عن ساعة . أما في الأحوال العادية . فيكتفى بتناول المشروبات الباردة ، والفواكه ، والحلوى بهذا النظام .

وقدرة الحلوى ، والفواكه ، ومشروباتها ، ومشروبات غيرها على أداء هذه الوظيفة بهذا الترتيب في تناول الطعام يرجع إلى ما بها من مواد كحولية ؛ تساعد على فناء ما يتخلف بالأمعاء من فضلات بعد كل وجبة . هذا إلى أن ذلك يحقق للجسم ، والأمعاء قدرة على الاستفادة من كل وجبة جديدة . هذا مع تناول كل وجبة على جوع ، والامتناع بتاتا عن تناول أى شيء بين كل وجبة ، ووجبة من فضلات الطعام ؛ كالترمس ونحوه . والإقلال من تناول الشاي إذ يؤدي إلى احتراق صور الإنسان . وعدم تناوله بعد الأكل . هذا وتناول الحلوى بعد الطعام مما يضر بهذا النظام .

هذا نظام لو اتبع مع نسائنا لوصل بهن إلى جمال يذرى بجمال يعتمد على استعمال المساحيق . أما سمر الوجوه فأرى لهن وجبة عشاء في بعض الأحيان من أرز فقط . على بياضه ، بعد تشبعه بالمسلى على النار .

هذا مع الاستحمام بالماء المغلى في كل ذلك ؛ وخاصة الرأس ، والاكتفاء للوجه بالماء البارد ، والصابون ؛ ولأكثر من مرة في اليوم .

هذه تجارب قد لمستها بنفسى ، وستؤدى إلى نتيجة ؛ ولكنها يجب أن تصحب بحالات تربية في تقويم الخلق ، وتكوين الشخصية ؛ لنصون بها هذا الجمال عن الابتذال .

هذا . . . وقد يزول تجعيد . أو خشونة بالشعر بغسل الرأس بماء يغلى ؛

ولو فيه مشقة على النفس ؛ ثم تسريحه ، وتدثيره بسرعة بعد الغسل ، وعدم تعريضه للهواء لمدة نصف يوم .

والاستحمام بالماء المغلي ؛ وخاصة الرأس قد شهدت أثره في القضاء على فضلات تحملها أعصاب الأمعاء^(١) . أو خلايا الجسم فتضر به . ولعل هذا ما يقصده سبحانه بقوله . « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ، وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعٌ^(٢) مِنْ حَدِيدٍ » .

وخلايا المخ حينما تستنفذ على شكل عصارات مع التفكير تأخذ طريقها الطبيعي إلى الفناء ؛ بحيث لا يستطيع تكوينها مرة ثانية للمخ . وهذا ما جعل الأطباء يقولون : « إن خلايا المخ لا تعوض » .

وفناء هذه الخلايا لا يضر بالإنسان ، ولا يؤثر في توازنه العقلي ؛ إذا كان ذلك عن حكمة ، واتزان في التفكير .

هذه العصارة تتساقط في بويضات التناسل قطرة قطرة . ولا تستنفذ من هذه البويضات مع الإفراز الغرزي إلا قطرة قطرة . وهي في كل ذلك ؛ كقطب سالب ؛ لما تحمله الأعصاب من هذه الإفرازات المتخلفة عن عملية الهضم .

وهذا الإفراز . إن لم يكن عن تفكير . ينتهي بالمرء إلى انحلال ،

(١) خروج هذه الفضلات من الجلد أمره واضح . أما من الأمعاء فتخرج مع التدفئة الشديدة على شكل محاط « بلغم » يكون في الأصل رخوا ؛ ثم يتجمد تدريجياً ؛ مع المواظبة على هذا النوع من الاستحمام ، وقد ينتهي بهذا أمره من الأنف . أو الصدر .

(٢) لعل هذه المقامع كناية عن مشارط الطبيب ، وآلاته الحديثة .

وضعف في اختلاطه الجنسي ؛ كما أن الإجهاد فيه بوسائل غير مشروعة . من تناول الخمر ، وتعاطى المخدرات يؤدي إلى تفتت خلايا المخ على غير نظام . ربما يذهب معه العقل .

والإجهاد العادي في هذا الإفراز — أى من غير تفكير — لا يدع لهذه الخلايا طريقا إلى الفناء ؛ ويقتصر أمره على ما تحمله الأعصاب فقط ؛ فيشعر الإنسان دائما بنوع من الغبوة . أو شيء من الكسل ؛ لبقاء المخ بها على ثقله النوعي .

والأعصاب عند ما تنقطع الصلة بينها ، وبين خلايا المخ ؛ كنتيجة لهذا الإجهاد ، تأخذ معها الكثير من فتات عظام الصدر . فتعكس بياضا في الشعر .

وفناء خلايا المخ بنظام علمي لا يسرع بالمرء إلى الشيب ، ولا يأخذه عند الشيخوخة إلى تخريف . وهذا أمر يجب أن تتسع له وسائل التربية في المراحل الأخيرة من التعليم الثانوي ، وفي الجامعات . وخير للمرء أن لا يكون لمخه خلايا إلا ما يبطن الأعصاب ؛ ليتسع صندوق تظليل ؛ تتكون فيه صور المرئيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

التفريق بين الهواء والروح

كلنا لا يجهل أثر الهواء في انتعاش الجسم ، وتصحيح وضع الروح ،
وكلنا يجب أن يفهم أننا مراکز حرارة ، أبلغ من الشمس أثرا في تبخير نلجة
العالم ، وتحويلها إلى مياه غازية ؛ تتسامى معها الروح .

ولقد درسنا في علم الجغرافيا ما لحرارة الشمس من أثر في خلخلة الهواء
في بعض مناطق الأرض ، وعلمنا أن ذلك يحيل طبقات أخرى منه إلى مناطق
ضغط ؛ تمتاز بالعواصف ، والأعاصير .

هذا الضغط الجوي . أو هذا الهواء المتساقط في شدة ؛ ليخلف المتصاعد
منه هو الذي تحفظ به الأشياء على سطح الأرض ، وهو الذي يحفظ به الإنسان
توازنه على هذا السطح ؛ في أي موضع من مواضعه . في شمال الكرة
الأرضية . . أو جنوبها .

هذا . . إلى أن الإنسان بزفيره ، وشهيقه يحدث لنفسه مثل هذه المناطق ؛
فيساعد على حفظ جسمه ، وتوازن روحه .

هذا الهواء المتساقط ، أو هذه الضغوط للأجواء هي ما يمكن أن نتخذها
علة ؛ لتساقط الأجسام على الأرض . هذا إلى أن هذه الأجسام ذات ثقل
نوعى ؛ لا تستطيع به أن تحتفظ لنفسها بمركز في الهواء ؛ فتضطر إلى الهبوط .
ولقد قال علماء : إن هذا التوازن يرجع إلى شيء سموه جاذبية ، وفرضوا
لها فروضا لا يؤيدها العقل ؛ ولا تعتمد إلا على التخمين . وحينما شاهدوا

تفاحة تقع من أعلى شجرتها على الأرض اتخذوا ذلك علة . وقالوا : إنها سقطت بالجاذبية . ولم أدر لم لم يقولوا : إنها سقطت بالثقل النوعي للأجسام .

ولقد قالوا : إن الأجسام الكبيرة تجذب الأصغر . فالأصغر . وأن الشمس هي أساس نظرية الجذب ؛ ولكن من يصدق هذا إن من يصدقه يجب أن يقر بعقل في هذه الأجسام ؛ كمؤثر ، ومحدث لهذه الجاذبية ، وإلا . . . فأن مناطق التصديق ؛ التي يعتمد عليها هؤلاء العلماء .

ولقد قالوا : إن الأرض مغناطيس كبير ، ولكننا نمشي عليها ؛ فلا نجد لهذه المغنطة أى أثر ؛ على أن هذه المغنطة ما عرفت إلا في بعض حجارة منها ؛ وعلى ندرة .

هذا إلى أن المغنطة التي ندرسها في علوم الطبيعة لا نصدقها إلا إذا التصق أحد الجسمين بالآخر . وهذا لا تقره المشاهدة لوضع الكواكب مع الشمس ؛ بل إنها تنفصل عنها بطبقات ، وطبقات من الهواء ، والأجواء ؛ على كل نوع . وقد تصل البرودة في بعضها إلى الدرجة التي يجمد بها الدم في الشرايين .

إن للعالم وضعاً آخر غير ما نفهمه عليه . فهذه الكواكب التي يقدر لها العلماء حركة حول الشمس كواكب ثابتة . وما قدر لها من حركة محض تخمين . أو افتراء على العلم . وإنها ما تعددت أقطارها إلا لأنها لا تعرف هذه الحركة الالتفافية ؛ التي عليها الأرض ، وقمر الأرض .

هذا الوضع قد بينه لنا القرآن في كثير من آياته . قال تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ . وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » .

هذا البناء بالأيدى إما أن نفهمه تكويننا لصور الحياة فى صفحة السماء .
وإما أن نفهمه مادة ، ووضع لبنة على لبنة ؛ ولو عن طريق المجاز ؛ ليكون
العالم ككرة مفرغة من الفولاذ . تتوسطها هذه الكواكب مع الشمس ؛ على أن
كلا الوضعين صحيح فى المادة ، والغرض الفكرى ؛ حتى تظهر الحياة واضحة
للملأ الأعلى ، ويكون لها رنين . ويكون لها صدى ، وضوضاء فى الأجواء
العليا من السماء .

والكواكب مع النجوم الثواب فى هذا الوضع لا يمكن أن نفهمه ؛
على أنه بناء ؛ كما يفسره بعض العلماء ؛ إذ هذا البناء له فهم آخر أسمى من هذا
الفهم ، وله وضع آخر يتسامى مع العقل ؛ على أنه سبحانه يقول فى شأنه :
«وَأِنَّا لَمُوسِعُونَ» وسعة فى البناء لا تتفق وضالة كل كوكب مع سمائه ؛
هذا إلى أن لفظ سماء ذكر مفردا فى هذه الآية .

قال تعالى فى مفاضلة بين خلق إنسان ، وخلق سماوات : «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ
الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ ، وَالْأَرْضِ . وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .

لقد حاولت أن أجعل خلق السماوات فى وضع النجوم والكواكب
بهذا الوضع مثلاً أعلى فما وجدته ينطبق مع صور أرقى فى التفكير تخيلتها لهذا
الكون ؛ على أن وضع هذه الأجرام السماوية بهذا الشكل ليس فيه قدرة
أو اقتدار . إنه يقوم فقط على التفاوت فى الكثافة بين طبقات الجو ؛ كما
يقوم على التفاوت بين هذه الأجرام فى الثقل النوعى .

هذه الأجرام قد أخذت هذا الوضع حسب هذا الثقل النوعى لها . وإن
ذلك أشبه برميها لجملة أجسام ؛ فى أحجام ، وأوزان مختلفة فى قاع محيط .
فمنها ما يهبط إلى القاع ، ومنها ما يقف فى منتصف الطريق . أو يطفو على

وجه الماء . أو في نقط قريبة من السطح . فإذا فرض أن لا قاع هناك ؛ فعلى أى حالة يكون أثقل هذه الأجسام . إنه لا بد وأن يقف به الهبوط في نقطة ما . . . من الكون . ما دام قد تنوع في طبقاته بين ماء ، وغاز . أو بين ماء ، ولجج منه .

هذا إلى أن هذا الهواء قد أثبتت التجارب الكيميائية خفته في الطبقات العليا من الجو . وربما يكون من غاز الهليوم فقط في الطبقات التي وقفت دونها قدرة الإنسان .

هذا . . . وبناء بغير عمد قد فهمه البنائون ، وعرفوه في نظام القباب . وسماها بغير عمد لا يصدق لها تفسير إلا إذا كانت على هذا النوع من البناء . أو على الأقل ؛ حتى لا تتلاشى الموجات الكهربائية بما تحمله من أصداء الحياة^(١) قال تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » . أما الرؤية في ذلك فخطاب لمن فوقنا . أو لنا . ومن رؤية العقل ، ورؤيا الخيال . على هذا يمكن أن نفهم قوله سبحانه . « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ ، وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ؛ فَفَتَقْنَاهُمَا . وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ . وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ؛ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا . وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ » .

(١) لقد وقعت لي تجربة عرفت بها مدى هذا الصدى . ذلك أنني كنت أفترش أرض حجرة مغلقة النوافذ ، على حصير فقط ، ثم ألصق إحدى أذني بالوسادة ؛ بحيث لا يتسرب إلى داخلها شيء من ضوضاء الحياة ؛ فكنت أسمع من يتحدثون في مثل هذه الحجرة من طابق يعلوه طابق .

وضغط الجو هو الذى تسقط به الأجسام المفرغة المبكفأة على الماء إلى القاع . فلو فرضنا أن لاهناك ضغط جوى ، وأكفأنا سفينة على الماء ؛ فإنها يستمر عالقاً بها سطح الماء . دون أن تهوى إلى القاع . وفى الإمكان أن تحمل وهى فى هذا الوضع أجساماً ذات ثقل محدود .

وبقاء العالم حافظاً لتوازنه ؛ ككرة عظيمة من الفولاذ ؛ انفصل عنها ؛ ومن قطبها الجنوبي ما يقرب من السدس ؛ ليسمح بإفراغ الهواء ، وتجديده فى داخلها . . . يقوم على هذا الفرض النظرى . هذا إلى أن تخلخل الهواء بداخلها ؛ نتيجة ما تحتويه من مرا كز متعددة للحرارة . مما تتسابق به تيارات الهواء إلى الداخل ؛ فتساعد على رفعها فى طبقات الجو ، وتعمل على حفظ توازنها .

وتخلخل الهواء بالحرارة ؛ ليتصاعد ؛ وليخلقه غيره هو ما تتحقق به دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس .

هذا الهواء المتخلخل فى المنطقة الاستوائية . حينما يتجه إلى الغرب مع ميل إلى شمال أو جنوب يأخذ وجهة النازل من ترام سريع إلى الخلف ؛ ليحتفظ بتوازنه على الأرض .

والأرض حينما تتجه فى دورتها إلى الشرق . وحينما يتساقط الهواء بسرعة ؛ ليخلف المتخلخل^(١) منه يأخذ هذا الهواء وجهة أخرى فى منطقتى الأرض المعتدلتين ؛ فيتجه إلى الشرق مع ميل إلى شمال . أو جنوب .

هذا الاتجاه الذى يأخذه هذا الهواء المتساقط . لا يمكن أن نعلل له بدورة الأرض إلى هذا الاتجاه ؛ إذ الهواء لا يأخذ وجهة الأجسام المتحركة فى نقط

(١) الهواء المتخلخل لا يساعد على دورة الأرض ؛ إذ هو هواء متصاعد ، ولا يتصادم ،

مع الأرض .

قريبة من السطح ؛ بل يرتد إلى الخلف ؛ كما نشاهد ذلك خلف العربات إذا سارت بسرعة .

هذا الهواء المتساقط في حد ذاته علة ومؤثر ، ومحدث لحركة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس ، وهو الذي يأخذ الأرض إلى هذا الاتجاه من منطقتيها لمعتدلتين . هذا إلى أنه عند تساقطه يتصادم مع الأرض ؛ فيساعد على تحقيق هذه الدورة .

هذا . . . وإذا راجعنا جبال الأرض ، ومرتفعاتها على الخرائط نجد أنها يغلب عليها الاتجاه من الجنوب إلى الشمال ، كما يغلب عليها أن تكتنف الشواطئ ؛ وخاصة الغربي منها ؛ فتلقى من تجاوير المحيطات تيارات أقوى ، وأشد .

هذه التيارات حينما تتصادم مع الجبال يتحقق لها قوة دفع تساعد الأرض أيضا في دورتها حول نفسها ، وحول الشمس

وحينما تتقابل رياح المنطقتين المعتدلتين برياح المنطقتين القطبيتين تتقابل معها على تضاد ؛ فتصير للأرض في حركتها تلك ؛ كتروس تدار بها الآلات بما تحدثه من عواصف ، وأعاصير . ربما تقتلع الأشجار في بعض الأحيان .

هذه العواصف عند ما تزداد مساحتها من الأرض في نصفها الشمالي شتاء هي التي تدفع الأرض إلى الجنوب ؛ لتتعامد الشمس على مدار السرطان . وعندما تزداد مساحتها في الجنوب شتاء . تدفع الأرض إلى الشمال ؛ لتعود الشمس إلى تعامدها على مدار الجدى . وهكذا دواليك .

هذا ما يمكن أن يقره العقل ؛ لحدوث صيف في أحد نصفي الكرة الأرضية ، أو العكس . أما القول بميل محور الأرض بقدر ما . . . ليتخذ علة

لهذه الأحداث ، فتخمين لا تعتمد عليه تجربة . أو مشاهدة ؛ حتى نقره نظرية من نظريات العلوم .

أما دورة الأرض حول الشمس فدورة ثانوية لحركتها حول نفسها ؛ إذ لا يكون بعد الحركة ، والدفع إلى انتقال من نقطة إلى نقطة ، وأما احتذاؤها لفلسكها في هذه الدورة ؛ فنتيجة لإحاطتها بقوى دفع من الهواء من كل جهة ؛ يجعلها لا تشدّ عن هذا المدار .

هذه القوى حينما تدفع الأرض من ناحية الشمس ؛ لتخرج عن مدارها ؛ تجد في الوقت نفسه ، وفي جانبها الآخر . أى في الليل — قوى دفع أشد ؛ كنتيجة تبريد يعم هذا الجانب ؛ فتردها إلى المدار إن خرجت عنه . وهكذا دواليك .



هذا ... وللأرض حركة تفريغ هوائية أخرى حول نفسها . ترميها على بعد بعيداً عن السطح . ذلك أنها بما يكتنفها من مرتفعات ، وما يكتنف هذه المرتفعات من أغوار ، تحد لها شكلاً ، لا يفتقر عن المراوح الكهربائية في شيء ؛ في الشكل . أو الغرض .

هذه الحركة الهوائية ، هي التي تدير القمر حول نفسه ؛ وتحدد له دورته في مداره ؛ على نحو ما سبق بيانه في دورة الأرض ، وفي الإمكان رؤية هذه الحركة الهوائية بالعين المجردة على سطوح الأجرام السماوية في وقت مناسب من الليل ؛ لما تحمله من غبار الأرض .

هذا إلى أن انتقال الأرض في مدارها مما يساعد على أن ترمى بحركتها

الهوائية الالتفافية تلك خلف القمر ؛ فتجعله لا يفلت منها إلى السكواكب .
أما من ناحية الشمس فإنه يعتمد في توازنه على التفريغ السطحي له لقربه منها .
ولقد قال بعض علماء الفلك عندما شاهدوا تلالؤا على سطوح هذه
الأجرام . إن ذلك نتيجة دورة هذه الأجرام حول نفسها . أو حول بعضها .
والواقع لا يقر ذلك ؛ إذ لم تكن عصفير . أو في حجم العصفير ؛ حتى نصدق
لها هذه الحركة .

أما هذا التالؤ . فهو تدفق هذا الهواء حينما يعترض سطوح هذه الأجرام
«ورؤية من العين» .

توقيت علمي

ومعارف علم الفلك للتوقيت ما زالت ضئيلة . وبها جمود . وما زالت .
تحتاج إلى دليل . أو برهان من العقل ؛ إذ تقوم على التخمين لا غير ، وعلى
المشاهدة لوقتي الغروب ، والشروق لمدة حسبت أساسا لهذا التوقيت .

هذا التوقيت على هذا الأساس التخميني نجده عند تداخل الليل في النهار .
أو العكس يضيف دقيقة . أو دقيقتين إلى الغروب أو ينقصهما من الشروق . ثم
يسكت لمدة ؛ وكأن الشمس قد توقفت عن الشروق أو الغروب لهذا القدر . أو
تعثرت في طريقها ؛ حتى يضاف هذا القدر دقيقة واحدة لفترة . . . ويضاف
في أخرى دقيقتين .

وتداخل الليل والنهار خارج المدارين هو الذي شقى به علم الفلك ؛ ولم
يهتد فيه إلى حساب زمني ؛ يرتضيه العقل ، ويطمئن إليه العلم . أما فيما بين
المدارين فقد استراح منه هذا العلم ؛ لضالة القدر الذي يتفاوت به ليل عن
نهار طوال أيام السنة .

وحركة الشمس الظاهرية حول الأرض من شرق إلى غرب قد
فهمناها ، وأقمناها توقيتا « $360^\circ \div 24 = 15^\circ$ في الساعة . بمعدل أربع
دقائق لكل درجة . أو دقيقة واحدة لكل ربع درجة » : أما حركتها إلى
الشمال . أو العكس فقد جهلناها ، وجهلنا أثرها ؛ كنظام علمي . أو توقيت .
يتعدد به شروق الشمس ، وغروبها في نقط ، وأوضاع مختلفة : خارج المدارين .

هذه النقلة الثانية للشمس تقطعها في ستة أشهر فيما بين المدارين من الشمال إلى الجنوب أو العكس « ٤٥° تقريبا ÷ ١٨٠ يوما تقريبا . أى بمعدل ربع درجة لليوم الواحد » .

فإذا فرضنا الشمس متعامدة على مدار الجدى . ثم انتقلت إلى الشمال على نقطة بهذا القدر من المسافة . أى ربع درجة بعد يوم على خط زوال ما . . . فإنها ترتفع على هذا الخط ، وفي هذه النقطة في سمت السماء بمقدار هذا الربع . وهذا يستدعى بقاءها في الجو لمدة ما ؛ حتى تقطع هذا القدر من المسافة على سطح الأرض .

هذه المدة من الزمن عند تكررها يوما بعد يوم . وعند ازدياد هذه المسافة يوما بعد يوم تتعدد أوضاع الشروق والغروب في كل نقطة على هذا الخط ؛ كما يتفاوت الليل عن النهار يوما بعد يوم بهذا القدر من الزمن ؛ لتقطع الشمس فيه هذه المسافات يوما بعد يوم .

هذه المسافة . أى الربع درجة . قد تكون مساحة أرضية في نقط قريبة من المدارين . وإكبتها عندما تتلاشى مع انحاء الأرض ؛ وفي كل نقطة تعلو الأخرى تحسب نقط ارتفاع للشمس في سمت السماء بهذا القدر . أما هذا . القدر من الزمن ؛ الذي تقطع فيه هذه المسافة على الأرض أو مقدرة في سمت السماء فقد يكون دقيقة في النقط القريبة من المدارين . أما فيما يبعد عنهما ؛ فيتراوح بين دقيقتين حسب تفاوت بعد كل نقطة عن أحد المدارين

وربع الدرجة هذا حينما ينكشف للشمس من سطح الأرض . أو من أفق السماء إلى الشمال . أو العكس ينكشف لها أيضا إلى شرق . أو غرب ؛

المتقطعة في دقيقة أو دقيقتين . . . إذ أنها تقطع المسافة من مدار الجدى إلى الشمال . أو العكس في حركة مركبة من جنوب إلى شمال . أو العكس . ومن جنوب شرق إلى شمال غربى . أو العكس . هذا مع حركتها الأصلية من شرق إلى غرب . أى أن خط سيرها على الأرض يأخذ شكلا حلزونيا من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى . أو العكس .

أما هذه الدقيقة التى قدرت لهذه المسافة فى نقط قريبة من أحد المدارين فهى التى سبق تقديرها لكل ربع درجة تقطعها الشمس من الشرق إلى الغرب .

والشمس عندما تتعامد على مدار الجدى فى ٢١ يناير على خط زوال ما . ثم تأخذ فى الانتقال إلى الشمال تكون بعد أربعة أيام قد ظهرت على كل نقطة تتلاقى فيها خطوط العرض الشمالية . مع خط الزوال هذا بمقدار درجة . وهكذا دواليك ؛ حتى تنتهى الستة أشهر .

فإذا أردنا أن نقوم زمنا لمدة ستة أشهر لنقطة تقع مثلا على خط عرض 30° شمالا فإننا يجب أن نضم إليها خطوط العرض الجنوبية أى 22.5° تقريبا ليضرب المجموع فى أرباع كل درجة أى « $30 + 22.5 \times 4 = 122.5 \times 4$ » من الدقائق . أى ثلاث ساعات . ونصف ساعة .

هذا القدر من الزمن . هو الذى يتفاوت به ليل عن نهار على مدار السنة فى هذه النقطة . فإذا تعامدت الشمس على مدار الجدى كانت زيادة ليل عن نهار فى هذا اليوم ، أى ٢١ يناير ، فى هذه النقطة . هى هذا القدر من الزمن . أى ثلاث ساعات ونصف ساعة .

الشهر	الأيام	الشروق ق : س	فرق الزمن	الغروب ق : س
٢٢	الخميس	٥ : ٧ $\frac{1}{4}$	+ ١ $\frac{1}{4}$ ق	٦ : ٥٢ $\frac{1}{4}$
٢٣	الجمعة	٥ : ٨ $\frac{2}{3}$	» » »	» » »
٢٤	السبت	٥ : ٩ $\frac{5}{6}$	» » »	» » »
٢٥	الأحد	٥ : ١١	» » »	» » »
٢٦	الاثنين	» » »	- ١ $\frac{1}{4}$ ق	٦ : ٥١ $\frac{1}{4}$
٢٧	الثلاثاء	» » »	» » »	٦ : ٥٠ $\frac{1}{4}$
٢٨	الأربعاء	» » »	» » »	٦ : ٤٩
٢٩	الخميس	٥ : ١٢ $\frac{1}{4}$	+ ١ $\frac{1}{4}$ ق	» » »
٣٠	الجمعة	٥ : ١٣ $\frac{1}{3}$	» » »	» » »
١	السبت	٥ : ١٤ $\frac{1}{2}$	» » »	» » »
٢	الأحد	٥ : ١٥ $\frac{2}{3}$	» » »	» » »
٣	الاثنين	٥ : ١٦ $\frac{5}{6}$	» » »	» » »
٤	الثلاثاء	٥ : ١٨	» » »	» » »
٥	الأربعاء	» » »	- ١ $\frac{1}{4}$ ق	٦ : ٤٧ $\frac{5}{6}$
٦	الخميس	» » »	» » »	٦ : ٤٦ $\frac{2}{3}$
٧	الجمعة	» » »	» » »	٦ : ٤٥ $\frac{1}{2}$
٨	السبت	» » »	» » »	٦ : ٤٤ $\frac{1}{3}$
٩	الأحد	» » »	» » »	٦ : ٤٣ $\frac{1}{4}$
١٠	الاثنين	» » »	» » »	٦ : ٤٢

ملاحظات :

(١) العدد (١٢) الذى طرح منه العدد ($٥ \frac{1}{8}$) هو مدة نصف يوم من وقت الزوال إلى منتصف الليل .

(٢) إذا أردنا أن نأتى بساعات النهار نضم عدد ساعاته بعد الزوال إلى خارج طرح بقية ساعات الليل من عدد الساعات عند الزوال . أي ($٦ \frac{7}{8}$)
 $\div (١٢ - ٥ \frac{1}{8}) = ٦ \frac{7}{8} + ٦ \frac{7}{8} = ١٣ \frac{٣}{٤} = ٤٥$ ق ، ١٣ س .

(٣) عندما يرجع الليل على النهار بما أخذه منه نضيف فرق الزمن ($١ \frac{1}{4}$ ق) إلى وقت الشروق لمدة ما . أو تنقصه من وقت الغروب لهذه المدة ؛
 لنحتفظ بساعة الزوال عند الرقم (١٢) .

وعندما يرجع النهار على الليل بما أخذه منه شتاء يكون العكس .

٢ — توقيت شتوى لمملكة تقع على خط عرض ٣٠ درجة شمالا
 أو جنوبا : —

ق	س
عدد ساعات النهار = $(٢٤ - ٣ \frac{1}{4}) \div ٢ = ١٠ \frac{1}{4}$	$١٠ : ١٥$
عدد ساعات الليل = $١٠ \frac{1}{4} + ٣ \frac{1}{4} = ١٣ \frac{٣}{٤}$	$١٣ : ٤٥$
وقت الغروب = $١٠ \frac{1}{4} \div ٢ = ٥ \frac{1}{8}$	$٥ : ٧ \frac{1}{٨}$
وقت الشروق = $١٢ - ٥ \frac{1}{8} = ٦ \frac{٧}{٨}$	$٦ : ٥٢ \frac{1}{٨}$

الشهر	الأيام	الشروق ق : س	فرق الزمن	الغروب ق : س
٢١ يناير	الجمعة	٦ : ٥٢ $\frac{1}{4}$	١ $\frac{1}{4}$ ق	٥ : ٧ $\frac{1}{4}$
٢٢	السبت	» » »	» » »	٥ : ٨ $\frac{2}{4}$
٢٣	الأحد	» » »	» » »	٥ : ٩ $\frac{3}{4}$
٢٤	الاثنين	» » »	» » »	٥ : ١١
٢٥	الثلاثاء	٦ : ٥١ $\frac{1}{4}$	١ $\frac{1}{4}$ ق	» » »
٢٦	الأربعاء	٦ : ٥٠ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »
٢٧	الخميس	٦ : ٤٩	» » »	» » »
٢٨	الجمعة	» » »	١ $\frac{1}{4}$ ق	٥ : ١٢ $\frac{1}{4}$
٢٩	السبت	» » »	» » »	٥ : ١٣ $\frac{1}{4}$
٣٠	الأحد	» » »	» » »	٥ : ١٤ $\frac{1}{4}$
٣١	الاثنين	» » »	» » »	٥ : ١٥ $\frac{2}{4}$
١	الثلاثاء	» » »	» » »	٥ : ١٦ $\frac{3}{4}$
٢	الأربعاء	» » »	» » »	٥ : ١٨
٣	الخميس	٦ : ٤٧ $\frac{3}{4}$	١ $\frac{1}{4}$ ق	» » »
٤	الجمعة	٦ : ٤٦ $\frac{2}{4}$	» » »	» » »
٥	السبت	٦ : ٤٥ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »
٦	الأحد	٦ : ٤٤ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »
٧	الاثنين	٦ : ٤٣ $\frac{1}{4}$	» » »	» » »
٨	الثلاثاء	٦ : ٤٢	» » »	» » »

ملاحظات : —

- (١) العدد (١٢) الذى طرح منه العدد ($٥ \frac{1}{8}$) هو مدة نطف يوم من منتصف الليل إلى وقت الزوال (١٢) .
- (٢) يستحسن عند الشروع فى عمل تقويم على هذا الأساس أن يضاف أو ينتقص فرق الزمن يوميا .

٣ — توقيت صيفى لملكة تقع على خط عرض ٤٥ درجة شمالا ..
أو جنوبا : —

ق	س	
عدد ساعات الليل =	$(٢٤ - ٤ \frac{1}{4}) \div ٢ = ١٩ \frac{1}{4} \div ٢ = ٩ : ٤٥$	
عدد ساعات النهار =	$٩ \frac{3}{4} + ٤ \frac{1}{4} = ١٤ \frac{1}{2}$	$١٤ : ١٥ =$
وقت الشروق =	$٩ \frac{3}{4} \div ٢ = ٤ \frac{٧}{٨}$	$٤ : ٥٢ \frac{1}{2} =$
وقت الغروب =	$١٢ - ٤ \frac{٧}{٨} = ٧ \frac{1}{8}$	$٧ : ٧ \frac{1}{8} =$

الشهر	الأيام	المروق ق : س	فرق الزمن	الغروب ق : س
٢٢	الخميس	٤ : ٥٢ ¼	ق ١ ¼ +	٧ : ٧ ¼
٢٣	الجمعة	٤ : ٥٤	» » »	» » »
٢٤	السبت	» » »	ق ١ ¼ —	٧ : ٦
٢٥	الأحد	» » »	» » »	٧ : ٤ ¼
٢٦	الاثنين	» » »	» » »	٧ : ٣
٢٧	الثلاثاء	٤ : ٥٥ ¼	ق ١ ¼ +	» » »
٢٨	الأربعاء	٤ : ٥٧	» » »	» » »
٢٩	الخميس	٤ : ٥٨ ¼	» » »	» » »
٣٠	الجمعة	٥ : —	» » »	» » »
١	السبت	» » »	ق ١ ¼ —	٧ : ١ ¼
٢	الأحد	» » »	» » »	٧ : —
٣	الاثنين	» » »	» » »	٦ : ٥٨ ¼
٤	الثلاثاء	» » »	» » »	٦ : ٥٧
٥	الأربعاء	٥ : ١ ¼	ق ١ ¼ +	» » »
٦	الخميس	٥ : ٣	» » »	» » »
٧	الجمعة	٥ : ٤ ¼	» » »	» » »
٨	السبت	٥ : ٦	» » »	» » »
٩	الأحد	» » »	ق ١ ¼ —	٦ : ٥٥ ¼
١٠	الاثنين	» » »	» » »	٦ : ٥٤

٤ — توقيت شتوى لملكة تقع على خط عرض ٤٥ درجة شمالا ..
أو جنوبا : —

ق	س	
عدد ساعات النهار	$= 24 - 4\frac{1}{4} = 19\frac{3}{4}$	$2 \div 19\frac{3}{4} = 2 \div 15 = 9$
عدد ساعات الليل	$= 4\frac{1}{4} + 9\frac{3}{4} = 14\frac{1}{2}$	$14 : 15 = 14$
وقت الغروب	$= 9\frac{3}{4} \div 2 = 4\frac{7}{8}$	$4\frac{7}{8} = 52\frac{1}{4} : 4$
وقت الشروق	$= 12 - 4\frac{7}{8} = 7\frac{1}{8}$	$7\frac{1}{8} = 7\frac{1}{4} : 7$

الشهر	الأيام	الشروق ق : س	فرق الزمن	الغروب ق : س
٢١ يناير	الجمعة	٧ : ٧ ¼	١ ¼ ق +	٤ : ٥٢ ¼
	السبت	» » »	» » »	٤ : ٥٤
٢٣	الأحد	٧ : ٦	١ ¼ ق -	» » »
٢٤	الاثنين	٧ : ٤ ¼	» » »	» » »
٢٥	الثلاثاء	٧ : ٣	» » »	» » »
٢٦	الأربعاء	» » »	١ ¼ ق +	٤ : ٥٥ ¼
٢٧	الخميس	» » »	» » »	٤ : ٥٧
٢٨	الجمعة	» » »	» » »	٤ : ٥٨ ¼
٢٩	السبت	» » »	» » »	٥ : —
٣٠	الأحد	٧ : ١ ¼	١ ¼ ق -	» » »
٣١	الاثنين	٧ : —	» » »	» » »
١	الثلاثاء	٦ : ٥٨ ¼	» » »	» » »
٢	الأربعاء	٦ : ٥٧	» » »	» » »
٣	الخميس	» » »	١ ¼ ق +	٥ : ١ ¼
٤	الجمعة	» » »	» » »	٥ : ٣
٥	السبت	» » »	» » »	٥ : ٤ ¼
٦	الأحد	» » »	» » »	٥ : ٦
٧	الاثنين	٦ : ٥٥ ¼	١ ¼ ق -	» » »
٨	الثلاثاء	٦ : ٥٤	» » »	» » »

ملاحظات : —

١ — هذا النظام التوقيتي لا يمكن تطبيقه بعد خطي عرض ٦٠ درجة شمالا ، وجنوبا ؛ وفي بعض جهات ترتفع . أو تنخفض عن المستوى العام الذي يجب أن تأخذه الأرض ؛ ككرة تامة التكور .

٢ — كل ارتفاع . أو انخفاض في هذا المستوى ؛ ولو بعشرات من الأمتار يؤثر في غروب الشمس أو شروقها بعشرات من الدقائق .

٣ — كل انبعاج عند خط الاستواء معناه انخفاض خط الزوال بعد خطي عرض ٦٠ درجة شمالا ، وجنوبا عن هذا المستوى بقدر يسرع بالشمس إلى الغروب .

٤ — يمكن تحديد مستوى سطح الأرض ؛ ككرة تامة التكور بعمل تقويم لكل نقطة من نقطها بهذه النظرية العلمية في التوقيت ، وما يتفاوت منه مع التقويم الواقعي . هو نتيجة ارتفاع أو انخفاض في خطوط العرض لهذه النقط ، فإذا قدرنا سرعة غروب الشمس في ارتفاع ما . . من الأمتار أمكننا أن نحدد هذا المستوى السطحي ؛ الذي يجب أن تأخذه الأرض .



وبعد . . فهل نستطيع أن نفهم أن حياتنا اليومية . حياة تمثيلية للملا
الأعلى ؛ فنعمل على إجادتها ؛ ونطهر لها صفحة الأرض ؛ حتى يتناولها بقبول ،
وارتياح ؛ كنتيجة لجهاد إنسانية طوال ما مر من آلاف القرون .
كن ممثلا ما استطعت أيها الأخ . في أى وضع من أوضاع حياتك ؛
فإننا لا نستطيع أن نحيا حياة صحيحة إلا بالتمثيل .



هل تستطيع أيها الأخ السياسى أن تتنازل عن شيء من واجبك إذا تعثر
في يدك ؛ لتتناول معه واجبا آخر ؛ فتقدم للأمة أى غذاء تهض به .
لقد غنت كل وزارة ، ورقصت لخزان أسوان . وأين خزان أسوان بعد
عشرين عاما أو تزيد ؟

ليس جلاء الإنجليز غرضا أسمى في السياسة ؛ حتى تقال من أجله كل
وزارة . إنما الغرض الأسمى أن تخلق من نفوس شبابنا عدة للمستقبل ؛ وتجعل
منه سلاحا يكون لك من خلفك .

هل تعلم أيها الأخ السياسى أن دانقا يشتري به صوت من أصوات الأمة
ستتدنس به نفس لا تستطيع أن تناصرک على طول الطريق .

ليس الغرض الأسمى في السياسة أيها الأخ أن تشتري الأعراض بالمال ؛
ليناصرک من الأمة شباب لم يعرف بعد معنى سياسة ، وغرض أسمى لسياسة .

إنما الغرض الأسمى أن نعلمه ، ونهذب به ، ونعوده جمع المال من طرقه المشروعة ليعلم . . . كيف . ومتى يدافع عن حقوقه المساوية .

ألم تعلم أيها الأخ أن سعياً وراء السعادة من مال يجمع تحت ظلال من الدين تسعة أعشار الدين . إذا علمت هذا . فاعلم أن وجبة طعام يتناولها المرء من طريق غير مشروع تبني جزءاً من خلاياه على خطأ تسؤل عنه يوم القيامة . لقد كان الأولى بنا أن نقيم المصانع ، وندعم التجارة على أساس شركات نأوى فيها العاقل . ونهين بها السعادة لكل فرد ؛ ليستطيع أن يكون لجسمه من سعيه خلايا لا تتعثر بها روحه في صفحة السماء .

لقد كنا نوّد أن تنال حياتنا الاقتصادية من السياسة شيئاً من الاهتمام مثل ما ناله منها الاهتمام بالإنجليز ، وجلاء الإنجليز . وكنا نوّد أن تجازف يد من السياسة ؛ فتستبدل بأحيائنا الفقيرة ، وقرانا المنكودة قري ، وأحياء جميلة ؛ ليشعر ساكنوها بشيء من السعادة ؛ كصنيع ننتصر به لصفحة السماء أو ننتصر به في جلاء الإنجليز .

تعال معي أيها الأخ هنيئة إلى هذه الأحياء لترى ما بها من بؤس ، الحياة ؛ فتعلم أننا ما زلنا عالمة على السياسة ، وما زلنا نضع لها الحراث أمام الثور ؛ كما يقول المثل الفرنسي .

إن تجارتنا لا تساعد على تكوين رؤوس أموال ما دامت تعتمد على مجهود فردي . فهل نستطيع أن نحفظها من عبث الورثة . أو ضعفهم ؛ إذا ضاع هذا المجهود ؟

إننا لا نستطيع ذلك إلا إذا جازفت يد من السياسة ؛ فألغت هذه الحوانيت ؛ لتقيم تجارتنا ، وأعمالنا المالية في معارض ، وشركات تزدان بها هذه الأحياء . أو تزدان بها صفحة السماء ، ولعلنا بذلك نهيم للعامل أو التاجر جزءا من السعادة ، والاستقرار في حياته الاقتصادية . يغنيه عن التلاعب بالأسعار .

ليست علاوة الغلاء علاجا ناجعا لحياتنا الاقتصادية ؛ بل هي تخدير أعصاب له رد فعل سيء بالأمة . فهل نستطيع أن نستبدل بها مصنعا . أو شركة ؛ فنضم حسنة لوزارة مشاولة من وزارة الأمة .

لقد أثبتت وزارة المعارف رجولة حينما تدخلت في شئون التعليم بكافة أنواعه . فهل لوزارة تجارة . . أو صناعة أن تتدخل في حياتنا الاقتصادية ؛ لتقيمها على أساس .

ما زال الفلاح . أيها الأخ . يطلب اللجنة من طريق غير مشروع . فهل نستطيع أن نحقق له شيئا من السعادة ؛ كتجربة للآخرة .

وبعد فلعلنا نفهم بعد هذا أن رسالة محمد ، رسالة تعديل « وتقويم لكل وضع من أوضاع الحياة ؛ فنعمل على تحقيقه بما نستطيع .

الفهرس

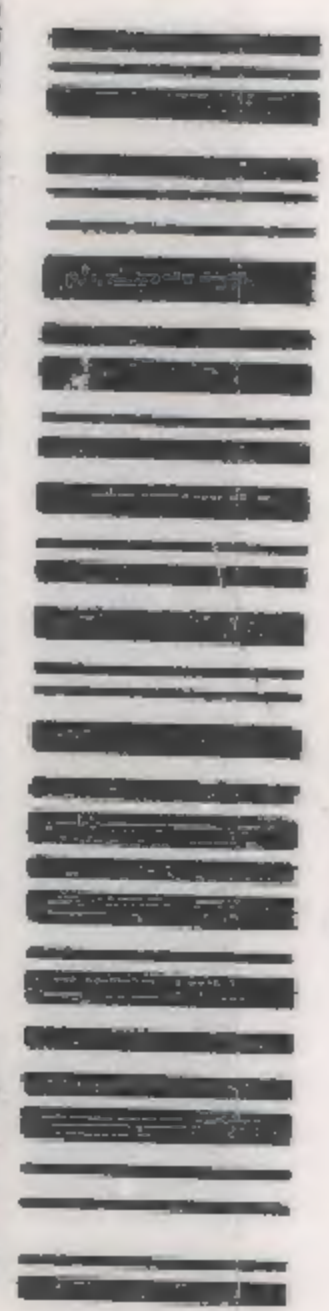
العدد	الموضوع	الصفحة
١	نشوء العقلية والتاريخ .	٥
٢	غيب مأمول . أو تجارب الحياة وأثرها في تكوين العقل	٧
٣	كيف خلق الله آدم .	١٣
٤	صراع بين جنسين على تفاضل .	١٨
٥	تردد العقلية بين الهدم والبناء .	٢٦
٦	النشأة العلمية . مدى هذه النشأة والقائمون بها .	٣٣
٧	كيف نشأت عقائد في الدين .	٣٨
٨	مبدأ الاختيار لرئاسة .	٤٥
٩	نشأة السحر وعلم الفلك .	٥١
١٠	تعديل في مواقف السياسة والتاريخ .	٥٧
١١	رابطة في اللغة .	٨٤
١٢	رابطة في العقيدة .	١٠١
١٣	نشأة الأدب ومبادئ الاجتماع .	١١٣
١٤	معنى الروح : « وبه شطر من الجانب اللاسلكي لموضوع الكتاب . أما الشطر الآخر فيلم به الموضوعان التاليان » .	١٢٦
١٥	الحالات الفكرية وأثرها في الجهاز العصبي .	١٣٥
١٦	التفريغ الهوائي .	١٤٩
١٧	توقيت علمي .	١٥٧

تدارك الأخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	التصحيح
٧	١٤	وإن الحياة	إن الحياة
١٦	١١	لا أدعى	لأدعى
١٦	١٠ هـ	الأنث	الإناث
٤٣	١٨	ذلك النمط وهو	ذلك النمط هو
٤٩	١٧	أن يحلى	أن يحلّى
٥١	٣ هـ	الأخوة	الإخوة
٥٢	١ هـ	الأخبار	الإخبار
٥٦	٨	تتخالف	تتحالف
٥٨	٣ هـ	نحبهم	تحبهم
٧١	٢ هـ	يهيج	يهيج
٩٦	٤	تسمو	تسموا



شارع فاروق - تلفون ٥٠٩٣٨



0672110